shwaihy
19-9-2010

AL-MAWRID

EDITOR -IN-CHIEF
DR.MOHAMMAD HUSSAIN AL-AARAJI
VOLUME - 35 - NUMBER -3- 2008

السعر: ٥٠٠ دينار

أبو عبد الله الحميدي وكتابه جذوة المقتبس

د.حازم عبد الله خضر
كلية الاداب / جامعة الموصل

بين يدي البحث

حفل القرن الخامس للهجرة في الأندلس بالعديد من الأعلام في الثقافة والأدب، أسهموا اسهاماً واسعاً في اثراء المكتبة الاسلامية العربية بمؤلفاتهم وآثارهم مما جعل القرن الخامس بفضل جهودهم يبلغ ذروة الازدهار والتقدم العلمي والثقافي والحضاري في شتى جوانب الحياة الأندلسية.

ومن هنا فقد رأيت من الواجب القيام بتسليط شيء من الضوء على هذه الفترة ــ فترة القرن الخامس للهجرة ــ وهي فترة الطوائف والمرابطين، وذلك بالتعريف لعدد من العلماء والأدباء الذين كانت آثارهم العلمية والأدبية من دلائل تقدم العلم وازدهاره في وقت كان العالم من حول شبه الجزيرة الأندلسية يعيش فترة من الظلام والجهل والتأخر في عديد من جوانب الحياة الانسانية.

ومن هؤلاء الأعلام أبو عبد الله الحميدي صاحب كتاب الجذوة وكتاب ((تسهيل السبيل الى علم الترسيل)) وغيرهما من الآثار التي ورد ذكرها في المصادر وترد الاشارة اليها في الموضع المناسب من هذا البحث.

والكتاب الأول هو المقصود بهذه الدراسة الموجزة، أما الثاني فلا يزال غير مطبوع أو محقق حتى الآن[1].

أما كتاب الجذوة فقد طبع أكثر من مرة ولكنه ــ في رأيي ــ مايزال بحاجة الى دراسة مفصلة وتحقيق علمي يعرف بأعلامه ويتتبع تراجمه ويستقصي ما ينطوي عليه الكتاب من سمات علمية وأدبية وتاريخية يفيد منها الباحثون في دراساتهم وبحوثهم، ولعلّ الله عز وجل يعين على أن يسدّ هذا البحث المتواضع شيئاً من هذه الحاجة ريثما يتم التحقيق على الوجه الأكمل لكي يتم بذلك التعريف النافع بهذا السفر القيم الذي يمثل ثقافة وفكر علم من أعلام الفترة ويحتل مكاناً مهماً في مصادر دراسة الأدب والتاريخ الأندلسي ابتداء من الفتح الاسلامي للأندلس وحتى وفاة المؤلف سنة ٤٨٨.

وقد رأيت أن أبدأ بالتعريف باسم الحميدي ونسبه ثم أتناول نشأته وحياته وثقافته وعلمه ومؤلفاته.

ونظراً لأهمية شخصية الحميدي الأدبية والثقافية فقد كان على هذه الدراسة أن تعرج على شيء من سمات أدبه ـ في الشعر والنثر ـ لكي يكون ذلك مدخلاً للتعريف بالكتاب وفهم أهدافه ودواعي تأليفه وهكذا جاء البحث في تناول الجذوة معتمداً على عرض موجز لمصادر الكتاب ومنهجه وما قيل من وجود صلات بينه وبين مؤلفات أخرى مشرقية أو أندلسية اقتضت طبيعة البحث الاشارة إلى جانب منها في مكانه المناسب وأخيراً فقد تناول البحث جوانب مما انطوى عليه الكتاب من القيمة الأدبية والتاريخية وما احتله هذا السفر ـ على الرغم من كونه مجلداً واحداً ـ في المؤلفات والآثار الأندلسية، وكذلك ما امتاز به من السمات الظاهرة الموجزة على صعيد الكتابة الأدبية وما امتاز به اسلوبه في التعبير الأدبي والتاريخي.

وبهذا أرجو الله عز وجل أن يتقبل هذا الجهد الذي يهدف الى التعريف بعالم وأديب ومؤلف من رجال الأندلس الذين بنوا حضارة أمتنا وأقاموا صروحها وأسسوا قواعدها على حب العلم وخدمة أهله ابتغاء رضوان الله وتقرباً إليه في خدمة كتابه العزيز وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم فأناروا بجهودهم بلاداً كانت تتخبط في دياجير الظلام والظلم والتأخر في شتى جوانب الحياة.

والله المستعان وهو الموفق لكل خير.

اسمه ونسبه

((محمد بن فتوح بن عبد الله بن حُميد[2] بن بصل الأزدي الحميدي وابوه يكنى أبا نصر..))[3] والحميدي بضم الحاء نسبة الى جده حُميد كما يشير الى ذلك ابن خلكان[4] وغيره ممن عني بالتعريف بالحميدي الأديب الحافظ المؤرخ.

ويرجع أصل الحميدي الى ربض الرصافة في قرطبة حيث ولد أبوه ونشأ وكذلك كانت نشأة الحميدي في حاضرة الأندلس ومركز الثقافة والعلم وعاصمة الدولة الاسلامية في الأندلس.

وكان مولده قبل العشرين واربعمائة كما يذكر هو عن نفسه فيما ينقله صاحب نفح الطيب؛ والظاهر أن تاريخ المولد لا يكاد يتجاوز سنة ٤١٩ استناداً الى ما اشار اليه بعض المؤرخين من أنه (كان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥)[5]. ومعنى ذلك أنه كان في سنة ٤٢٥ في أولى مراحل طلبه العلم وهي مرحلة الصبا والتي يمكن تقديرها بحوالي سبع سنين مما يؤكد ترجيح المولد سنة تسع عشرة وأربعمائة.

وأما تأريخ وفاته فلعله أثبت من تاريخ مولده اذْ لانجد خلافاً في أن هذه الوفاة كانت سنة ٤٨٨هـ كما ينص اجماع المؤرخين الذين ترجموا له ومنهم ابن العماد الحنبلي، الذي ينص على أن الحميدي (توفي في ذي الحجة عن نحو سبعين سنة)[6]، واذا طرح هذا الرقم من سنة ٤٨٨ جاء تاريخ الولادة مقارباً لسنة ٤١٩ التي ولد فيها الحميدي أوما يقرب منها بأشهر قليلة.

على أن ما يستفاد من هذا كله أن أبا عبد الله الحميدي قد ولد ونشأ وعاش وتوفي في القرن الخامس للهجرة مما مكنه أن يعاصر النهضة العلمية والثقافية التي ترددت أصداؤها وتجاوبت في عواصم دول الطوائف المشهورة بكونها مراكز ثقافية شعت بنور العلم والأدب لاعلى شبه الجزيرة الأندلسية فقط وانما على الأقطار المحيطة بها[7].

نشأته وحياته

لا تسعفنا المصادر بتفصيلات وافية عن حياة أبي عبد الله ولا عن نشأته سوى إشارات قليلة تتعلق بطلبه العلم وإقباله عليه في سن مبكرة متردداً على الشيوخ المشهورين في بداية الربع الثاني

من القـــرن الخامس للهجرة مثل إشـــــارة حمله على الكتف للسماع، التي سبق ذكرها وهي إشارة واضحـــة في النص على التبـــكير في طلب العلم والحرص على حـــضور مجالس العلماء بشغف وهمة عالية لتحصيل العلوم التي كان أقرانه يطلبونها وفي مقدمتها كما يرى بـــعض الباحـــثين (العلوم الدينية من فقـــه وحديث)[٨].

وهي العلوم التي تشكل الركن الأساس والقـــواعد الأولى لثقافة المتعلمين الذين تفترق بهم شـــعب العلم بـــعد ذلك إلى التخصص في الحديث وعلومه وروايته أو في الأدب وفنونـــه أو في المنطق وعلم الكلام وما يتعلق بهما.... وربما دلت الاشـــارة السابقة على أن الحميدي كان يمتاز بذكاء وقوة حافظة وذهن متوقد وقلب ذكيّ مكنه من المتابعة والاستقصاء ومنحه النفس الطويل في طلب العلم وتحصيله ثم الوصول بعد ذلك إلى درجة عالية من الفهم والحفظ وسعة الادراك.

وفيما سوى هذه الاشارات القليلة لا يكاد الباحث المتأمل يقف على ما يلقي الضوء على حياة الحميدي الخاصة أو حـــتى حـــياة أســـرته ووالده بـــالذات وما الذي كان ـــ يتعاطاه من الحرف وما مركزه في المجتمع أو مكانته العلمية؛ ولهـــذا فـــإن الباحث لا يجد بدا من الترجيح والاســـتنتاج في محاولة رســـم خطوط عامة وملامح مجملة للأسرة الحميدية التي نشأ وترعرع فيها ابو عبد الله، ومن هذا مثلاً تأملنا في انكباب أبي عبـــد الله وإقباله على العلم وطلبه في سن مبكرة وتفرغه له وقلة انشغاله ـــ إذا لم نقل عدم انشغاله ـــ بـــغير ذلك من الأمور المعاشـــية والاجتماعية الضرورية وغير الضرورية حـــيث يؤدي ذلك إلى استنتاج أن تكون اسرته مرفهة غنية أوأنها ـــ على الأقـــل ـــ لا تعاني من الفاقـــة والحاجة ما يضطرها إلى صرف أبي عبـــد الله وغيره من أفراد الأسرة إلى العمل وتحصيل لقـــمة العيش، وربما استطعنا تأكيد هذا بما وصل الينا من أخبار الحميدي حول عزمه على الرحلة إلى المشرق في وقت مبكر من حياته وهو لما يتجاوز سن الخامسة والعشرين؛ مما يقوّي اتجاه تعلقه بالعلم وحـــرصه عليه والمداومة في طلبه شأن عديدين من أترابه العلماء وطلبـــة العلم الأندلسيين الذين لم يكتفوا بما كانوا يحصلونه في الأندلس بل كانوا يتطلعون الى أعلام علماء المشـــرق ليجلســـوا اليهم ويأخذوا عنهم، ومعلوم ان الرحـــلة في طلب العلم كانت عرفاً سائداً وسمة حضارية مضيئة في حياة الأندلسيين حتى إن المصادر تحدثنا عن أسماء مئات منهم تركوا بلادهم الأندلســـية وأهلهم وهاجروا من أجل التحصيل العلمي[٩] ومكثوا سنين عديدة في حواضر المشرق الكبرى طلباً للعلم. على أن الحميدي لم يتوقف عند مجرد الهجرة وقضاء فترة من الوقت طالت ام قصرت وانما كانت هجرته هجراً لبلده واستيطاناً للمشرق حتى وافته المنية ببغداد ودفن فيها بعد أن قضى مايربـــو على أربـــعين عاماً في عاصمة الحضارة ومركز الاشعاع العلمي ومهد العلماء وموطن مجالس العلم والمناظرات والحوار ونشـــر الكتب والدواوين والموسوعات في شتى علوم القرآن الكريم والحديث الشـــريف وفنون الادب والعلوم المختلفة الأخرى.

وتجدر الاشـــارة هنا إلى أن الأخبـــار الواردة عن الحميدي واقامته في بغداد ومجاورته العلماء والفقهاء والرواة والمؤرخين والأدباء؛ هذه الأخبار لا تشير إلى انه تزوج في بغداد فضلاً عن أن تكون له ذرية.

وربما كان هذا ـــ على فرض صحته اذ لم يرد ما يناقضه ـــ من أدلة الانشغال الشديد بالعلم والتحصيل وما يتطلبه التدرج العلمي من طالب علم الى اســـتاذ ومدرس وشـــيخ له تلامذته ومجالسه ومحاضراته من المداومة على الدراسة والنظر والمتابـــعة مما قد يجد فيه كثيرون من الشغوفين بالعلم وأهله شـــاغلاً عن

الحياة الأسرية وصارفاً على التفكير في الاقتران على كثرة ما كانت تزخر به البيئة المشرقية وبغداد بصورة خاصة من النساء اللائي جمعن بين جمال المظهر والمخبر وكرم الأصل وحسن السيرة ورجاحة العقل مع توفر الظروف الأخرى المشجعة مادية ومعنوية.

ثقافته وعلمه

يمكن القول ــ استناداً إلى الأخبار الواردة عن الحميدي ــ أن حياته العلمية والثقافية تبدو من خلال فترتين تشكلان في حياته الثقافية الخطوط العامة والملامح الرئيسة في الأندلس والمشرق.

أما أولاهما: فهي فترة إقامته في الأندلس وهي التي تبعت نشأته وصباه وفيها يبدو الحميدي شديد الأقبال على طلب العلم شغوفاً به يتبع مصادره ويفيد من موارده بالرجوع إلى الشيوخ المشهورين في عصره الذين كان لهم الفضل الأكبر في نشر الثقافة الاسلامية في ربوع الأندلس والبلاد المجاورة لها ومنها أوربا التي كانت انذاك تمر بفترة القرون الوسطى كما تسمى في التاريخ الحديث. وتورد المصادر العديدة جملة من أسماء الاعلام الذين سمع منهم الحميدي وتفقه على علومهم وتلمذ لهم (وأول من سمع منه أبو القاسم بن أصبغ وتفقه على أبي زيد القيرواني وروى عنه رسالته ومختصر المدوّنة...))[10].

وتورد مصادر أخرى أسماء آخرين من شيوخه وأساتذته (... ومنهم أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد علي بن حزم وأبو العباس العذري...)[11].

وليس أصدق في هذا من الأخبار التي يرويها الحميدي عن نفسه في جذوته ويؤكد فيها أخذه عن أعلام علماء الأندلس في عصره، وينص على ذلك في مواطن كثيرة من سفره القيم[12].

واذا كانت العبرة بالنوع لا بالعدد فإن شيوخ الحميدي كان اكثرهم ممن عرف في عصره بالتفوق العلمي مثل ابي محمد بن حزم الأندلسي وابي عمر ابن عبد البر اللذين عرفا في الأندلس والمشرق بآثارهما العلمية والأدبية والفقهية وجهودهما في نشر العلم ومتابعة طالبيه، بل ان هذين العالمين الجليلين يعدان من أبرز الشخصيات العلمية المتألقة في القرن الخامس؛ ومؤلفات ابن حزم كالمحلى والأحكام في أصول الاحكام وكتبه في التاريخ والتراجم والأدب والأخلاق وغيرها أكثر من ان تحصى في هذا مثل المختصر، ومثل هذا يمكن أن يقال عن أبي عمر بن عبد البر من حيث مكانته العلمية وآثاره.

يقول بعض المؤرخين مصوّراً صلة الحميدي بابن حزم وطلبه العلم على يديه:

(ولازمه وقرأ عليه أكثر مصنفاته، وأكثر الأخذ عنه وشُهر بصحبته وكان على مذهبه إلا أنه لم يتظاهر بذلك..)[13] وكثيراً ما ترد إشارات صريحة في النص على أن الحميدي كان تلميذ ابن حزم، وكذلك اكد تلك الاشارات عديد من الباحثين مثل قول أحدهم: (وروى عن ابن حزم فأكثر واختص به، وبه عرف وبصحبته شهر فهو تلميذه الخاص)[14] كما يشير باحث آخر إلى أن الحميدي (لازم ابن حزم وقرأ عليه مصنفاته كلها...)[15].

ونقرأ في ترجمة الحميدي لأستاذه أبي محمد بن حزم تعريفاً موجزاً بحياته ومؤلفاته وآثاره إلى جانب اشارته في ختام التعريف بوضوح إلى شاعرية ابن حزم وموهبته الأدبية وسمات فنه وعلمه الواسع الذي تعددت جوانبه حتى شملت آفاق الفقه والشريعة والتاريخ والفلسفة والسير... يقول في ذلك: (.. وكان له في الآداب والشعر نفس طويل وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير قد جمعناه على حروف المعجم...)[16].

وعلى الرغم من أن هذا المجموع لم يصل إلينا على نحو ما

أورده الحميدي فإن إشارته هذه إلى جمع شعر أبي محمد بن حزم تؤكد بوضوح علاقته به وصلته العلمية والأدبية به وتلمذته له.

ونجد في ثنايا المصادر الأندلسية ما يشير إلى وجود علاقة بين الحميدي وعلم آخر من أعلام القرن الخامس في الأندلس هو المؤرخ الكبير الأديب أبو مروان بن حيان المتوفى ٤٦٣هـ، يقول الحميدي نفسه في التعريف بأبي مروان: (حيان بن خلف بن حسين بن حيان أبو مروان القرطبي صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس وملوكها وله حظ وافر من العلم والبيان وصدق الايراد ذكره أبو محمد علي بن أحمد وأثنى عليه وأدركناه بزماننا..)[١٧].

ولعلّ من الواضح ما تشير إليه العبارة الأخيرة إذ تنص بوضوح على معاصرة الحميدي لأبي حيان حتى وفاة الأخير وقد تكون هي التي اعتمدها بعض الباحثين في تفسير العلاقة بأنها تلمذة وتعلم حين قال: (وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨هـ وقد عني في معجم تراجمه بترجمة كثير من العلماء والادباء والفقهاء والمحدّثين في عصر الطوائف..)[١٨].

وعلى هذا فلا يستبعد الباحث وجود الصلة العلمية بين الحميدي وأبي مروان في هذه الفترة من حياة الأول وهي فترة الشباب، أما ضعف الاشارة في كلام الحميدي نفسه الى العلاقة بينه وبين أبي مروان، فإننا نرى أنه لم ينص صراحة على تلمذته لابي محمد ابن حزم في حين وجدنا إشارات المؤرخين صريحة في النص عليها وهي تكفي لتأكيد الصلة وتحديد نوعها وفي هذا السياق يمكن أن ينظر إلى العلاقة بين مؤرخ الاندلس ابي مروان والحميدي، ويؤيد هذا أن الرجلين تعاصرا في فترة الشباب وكانا من المعنيين بالعلم والأدب والمشهورين في مجالس العلم والتردد على شيوخ العصر وأساتذته، كما أن نهج الحميدي في كتابه الذي اعتمد الايجاز والاختصار في التراجم بالنسبة لجميع الأعلام الذين ترجم لهم وظروف تأليف الجذوة كل ذلك قد يبرر لأبي عبد الله الحميدي مروره العابر السريع بطبيعة علاقته بأبي مروان بن حيان وربما بطبيعة علاقته بآخرين من المعاصرين الذين عرفوا في ميدان الأدب والثقافة. خاصة وأنه قد برر في مقدمة كتابه اتباعه نهج الايجاز والاختصار حين بسط ظروف تأليفه الجذوة وما كان يعتريه من التردد أول الأمر خوف الوقوع في تقصير أو تفريط تجاه أعلام بلده ولكنه حين قدم الفائدة المرجوة من هذا الكتاب بالنسبة لأهل المشرق؛ تجاوز عن مسألة الايجاز ورأى أنها لا تكاد تعد شيئاً إلى جانب الأهداف التي يرى أن الكتاب يحققها بالنسبة لأعلام بلده الأندلس ونشر مآثرهم وآثارهم حتى لو كان ذلك في مجال محدود وقدر معين.

الحميدي في المشرق

وتشكل المرحلة الثانية من حياة الحميدي في المشرق بعد رحلته إليه وبعدها الجانب الهام من حياته العلمية والثقافية؛ ونفهم من المصادر أن ابا عبد الله: (رحل إلى المشرق بعد الأربعين واربعمائة، فروى بمصر عن جماعة منهم أبو عبد الله ابن ابي الفتح وببغداد عن جماعة منهم الخطيب أبو بكر صاحب التاريخ..)[١٩]. وتؤكد مصادر أخرى أن هذه الرحلة العلمية كانت رحلة مهمة مرّ خلالها الحميدي بأقطار اسلامية عديدة قبل أن يستقر ببغداد ويتخذها موطناً وسكناً، يقول مؤرخ مشهور (ورحل إلى المشرق سنة ثمان وأربعين واربعمائة فحج وسمع بمكة حرسها الله تعالى وبأفريقيا وبالأندلس ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد...)[٢٠].

ولا نكاد نجد مصدراً من مصادرنا القديمة المهمة قد أغفل رحلة الحميدي والتأكيد على أهميتها العلمية باعتبارها واحدة

من الرحلات العديدة التي عبرت عن متانة العلاقة بين الأندلس والمشرق من جهة وكذلك دلت على حرص الأندلسيين على طلب العلم وأخذه من منابعه الأصيلة حيث مركز الحضارة وموطن الاشعاع الفكري والعلمي بغداد، ولم يكن غريباً بعد هذا ان يحرص مؤرخنا الحميدي على تلقي العلم من جهابذة العلماء ومشاهير الأدباء ثم يبدأ هو بعد ذلك بالتصنيف والتأليف بعد أن يكون قد حصل على إجازات اولئك العلماء وقرأ عليهم مصنفاتهم وحذق مسائلها وفنونها يقول بعض المؤرخين في جانب من حديثه عن الحميدي وشخصيته العلمية والأدبية وجهوده في تعلم العلم وتعليمه: (سمع بإفريقيا ودمشق وأقام بواسط مدة ثم رجع إلى بغداد واستوطنها وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عنه أكثر مصنفاته..)[٢١].

واذا كان هذا الخبر الذي يرويه مؤرخ مشرقي معروف ومشهور لا يكاد يشكل سوى عرض بسيط موجز لجانب من حياة أبي عبد الله في المشرق؛ فإن واقع حياة الحميدي والآثار التي أشار إلى أسمائها مؤرخون مشارقة واندلسيون، يدل ذلك كله على سعة علمه وشدة اقباله على طلبه بمتابعة المشهورين من شيوخ العصر في المشرق ممن قُدِّر له الالتقاء بهم ومن هذا كله نستطيع القول بأن القسم الثاني من حياة الحميدي في المشرق قد تمثلت فيه شخصية العالم الناضج والمثقف المرموق والأستاذ والشيخ المعلم الذي يجلس إليه طلبة العلم ويأخذون عنه وذلك ما تؤكده مصادر التاريخ التي عنيت بتراجم العلماء والشيوخ والمحدثين وبخاصة منها ما كان معنياً برواة الحديث ومترجمي الرجال؛ يقول أحدها ضمن التعريف بالحميدي على أنه أحد رجال الحديث الأثبات وكتاب التاريخ المشهورين فيذكر عدداً ممن تلمذ لأبي عبد الله ونسب إليه بالعلم، يذكر منهم (يوسف ابن أيوب الهمداني الزاهد، ومحمد بن طرخان، وأبو عامر العبدري ومحمد بن علي والحسين بن الحسن المقدسي وأبو عبد الله الحسين ابن نصر ومحمد بن خميس والحافظ محمد بن ناصر واسماعيل بن السمرقندي...)[٢٢] كل هذا يوضح لنا أهمية الفترة التي قضاها الحميدي من حياته في المشرق تلك الفترة التي امتدت ما يقرب من أربعين عاماً بين تاريخ رحلته سنة ٤٤٨هـ وحتى وفاته سنة ٤٨٨هـ، متنقلاً بين عواصم الثقافة والعلم والأدب والتاريخ حتى استقر به المطاف في عاصمة الثقافة والعلم والأدب بغداد ويحتل فيها مكانة مرموقة في ميدان العلم والأدب وفي مهنة التدريس ونشر العلم إلى جانب التأليف والتصنيف الذي بلغ عدداً كبيراً فضلاً عن اهمية تلك المؤلفات من الوجهة النوعية وذلك ما نحاول الاشارة إليه في خطوط عامة مختصرة في السطور القادمة ضمن دراسة مؤلفاته وآثاره التي يفهم من يلقي النظرة العاجلة عليها سعة ثقافة الرجل وطابع العلوم التي حصلها مما رشحه الى أن ينال بحق وجدارة ما وصفه به المؤرخون بأنه محدث حافظ مؤرخ أديب.

مؤلفاته وآثاره

واذا كان أبو عبد الله على ما أشرنا من الاطلاع والفهم والدراية والمقدرة العلمية والثقافية والأدبية فإننا نحاول الوقوف على دلائل هذه المكانة وتلمس جملة من ثمراتها وخلاصات جهود أبي عبد الله فيها بما يتناسب وفترة تزيد على نصف قرن من الزمن قضاها في الجد والعمل والمثابرة في مسيرة علمية نافعة؛ وهكذا فإن المصادر التي ترجمت لأبي عبد الله الحميدي ذكرت عدداً من المؤلفات التي أنجز تأليفها في بغداد ضمن اقامته في المشرق يقول بعضهم: (وكتب بها كثيراً من الحديث والأدب وصنف مصنفات كثيرة وعلق فوائد وخرّج تخاريج للخطيب وغيره..)

ونقرأ في مصدر آخر قائمة من الكتب التي الفها أبو عبد الله وهي:

١ــ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس.

٢ــ تاريخ الاسلام

٣ــ الأماني الصادقة

٤ــ تسهيل السبيل إلى علم الترسيل.

٥ــ الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم

٦ــ كتاب ذم النميمة.

٧ــ الذهب المسبوك في وعظ الملوك.

٨ــ كتاب ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار

٩ــ مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء.

١٠ــ كتاب من ادعى الأمان من أهل الأيمان[٢٤].

وتورد مصادر أخرى مجموعة ثانية من مؤلفات الحميدي إلى جانب ما ذكر آنفاً ومنها:

١ــ المتشاكه في أسماء الفواكه

٢ــ بُلْغة المستعجل.

٣ــ التذكرة.

٤ــ أدب الأصدقاء

٥ــ تحفة المشتاق في ذكر صوفية العراق.

٦ــ المؤتلف والمختلف.

٧ــ وفيات الشيوخ.

٨ــ نوادر الأطباء[٢٥].

وهذه المؤلفات التي لم يصلنا أكثرها دلالة واضحة على ثقافة الحميدي وسعة علمه مما يمكن حصره في الخطوط العامة الآتية:

١ــ الموضوعات الاسلامية والأخلاقية والعلاقات الاجتماعية.

٢ــ التاريخ والتراجم والسير ومنها كتاب الجذوة موضوع البحث.

٣ــ فنون الأدب من شعر ونثر[٢٦].

وعلى الرغم من أن هذه الخطوط العامة تشكل قواعد وأصول الثقافة العربية الاسلامية في العصور المختلفة؛ إلا أن الباحث المتأمل لا تفوته ملاحظة غلبة الطابع الفقهي الأسلامي وطابع التاريخ على المؤلفات إلى جانب علم الحديث والرواية وما يتعلق بهما من علوم فرعية أخرى تخدم هذا العلم وتتصل به في نطاق السنة النبوية المطهرة وما تقوم عليه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته.

يذكر واحد من المؤرخين القريبين من عصر الحميدي ضمن الترجمة له والتعريف به، ما يؤكد اتجاه الحميدي هذا وشهرته العلمية وسعة علمه بالحديث وعلومه فيقول: (... وأخبرنا القاضي الامام بلفظه قال: سمعتُ أبا بكر بن طرخان ببغداد يقول: سمعت أبا عبد الله الحميدي يقول: ثلاثة أشياء من علوم الحديث يجب تقديم الفهم بها؛ كتاب العلل وأحسن كتاب وضع فيه كتاب الدار قطني، وكتاب المؤتلف والمختلف وأحسن كتاب وضع فيه كتاب الأمير ابن ماكولا، وكتاب وفيات الشيوخ وليس فيه كتاب، وقد كنتُ أردت أن أجمع في ذلك كتاباً فقال لي الأمير: رتبه على حروف المعجم بعد أن ترتبه على السنين...)[٢٧]. ويشير مؤرخ آخر ممن ترجموا للحميدي إلى تخصصه في الحديث وصفاته التي أهلته أن يكون من علمائه المدققين وشيوخه العارفين فيقول:

(وروى عنه الأمير الحافظ الأريب أبو نصر علي ابن ماكولا وقال:

أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي وهو من أهل العلم، والفضل والتيقظ لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله

بالعلم، وقال بعض أكابر عصره ممن لقي الأئمة: لم تر عيناي مثل أبي عبد الله الحميدي في فضله ونبله ونزاهته وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله وكان ورعاً ثقة إماماً في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته محققاً في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث متبحراً في علم الأدب والعربية...)[٢٨].

ويؤكد هذه المعاني واحد ممن أدركوه وأخذوا عنه ونقلوا الكثير عن كتابه الجذوة بقوله: (وكان رحمه الله نسيج وحده حفظاً ومعرفة بالحديث ورجاله....)[٢٩].

وعلى النهج نفسه نجد المصادر الأندلسية والمشرقية تصف الحميدي بأنه مؤرخ يعتمد عليه المؤرخون المعنيون بالتاريخ الأندلسي بخاصة، والتاريخ الاسلامي بعامة وينقلون عن كتابه الجذوة في صفحات ومواضع عديدة من مؤلفاتهم حتى قال أحدهم عنه بأنه: (.. الشيخ الفقيه المحدّث الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي..)[٣٠].

ويصفه مؤرخ آخر متأخر عن السابق في الزمن بقوله: (وكان دؤوباً على الطلب للعلم كثير الاطلاع، ذكياً فطناً رصيناً ورعاً أخبارياً متقناً كثير التصانيف حجة ثقة رحمه الله تعالى...)[٣١].

وهذه شهادة واضحة تؤكد مكانة الحميدي وصفاته العلمية والتاريخية كما تؤكد ممارسته كتابة التاريخ والتأليف فيه حتى عُرف واشتهر في الأوساط التاريخية المشرقية وعلى ألسنة الأعلام من المشارقة الذين عرفوا بمكانتهم التاريخية والعلمية من أمثال الحنبلي الذي وصف الحميدي بقوله: (... صديقنا أبو عبد الله الحميدي من أهل العلم والفضل وسمع أصحاب الدار قطني وابن شاهين وغيرهم وسمع من خلق كثير وصنف تاريخ الأندلس، ولم أر مثله في عفته ونزاهته...)[٣٢].

ولكن المؤرخ المذكور الذي ينقسل كلام ابن ماكولا ــ صديق الحميدي ــ لم يذكر شيئاً عن طبيعة التأليف المشار اليه في تاريخ الأندلس.

ولا أرى أن يكون المقصود بكتاب تاريخ الاندلس: كتاب الجذوة نفسه على الرغم من احتوائه اموراً تاريخية عامة وأحداثاً معينة رُوعي فيها تسلسل الزمن منذ الفتح وحتى القرن الخامس فضلاً عن التراجم التي ضمت اشارات ودلالات تاريخية تعود إلى مختلف الأمكنة والأزمنة والأشخاص.

ذلك أن قائمة مؤلفات الحميدي تحتفظ بعنوان كتاب تاريخ الاسلام إلى جانب احتفاظها بعنوان كتاب جذوة المقتبس، مما يؤكد القول بأن العنوانين يمثلان كتابين مختلفين، وأن كتاب تاريخ الاسلام ربما كان في تاريخ الاسلام العام أو خاصاً بأهل المشرق ليكون تذكرة لأهل الأندلس يطلعون من خلاله على مزيد من الأخبار والأحداث المشرقية، أما كتاب الجذوة فهو ــ كما سيأتي ــ خاص بأهل الأندلس أوجز فيه الحميدي تاريخ تلك البلاد وتطرق إلى التعريف بالبارزين من أعلامها في فنون مختلفة من العلم والأدب وأما ما ورد فيه من إشارات إلى أعلام من أهل المشرق فلا يتعدى الالمام الموجز السريع بما يحتاجه الحديث ويستدعيه المقام.

وبهذا يكون من التجوز الكبير والتوسع الذي لا داعي له ولا ضرورة تدفع إليه تسمية كتاب الجذوة بتاريخ الأندلس كما فعل بعضهم معتمداً على ما اشرنا إليه من محتويات كتاب الجذوة في الأمور التاريخية التي جعلها المؤلف مقدمة او مدخلاً لكتابه ليكون ما يورده من أخبار الأدب والعلم والعلماء معتمداً على تسلسل زمني ومعالم من الشخصيات والمواقع ذات الصلة المباشرة بموضوعات الكتاب وأهدافه الرئيسة؛ خاصة وأننا لا نجد بين أيدينا إشارة صريحة تؤكد هذا وتدفع إلى إقراره.

الحميدي أديب وشاعر

يبدو من العرض الموجز لثقافة الحميدي ومكانته العلمية المعتمدة على السعة والشمول لعديد من علوم الشريعة والعربية؛ أن الأدب كان يشكل جانباً هاماً من جوانب هذه الثقافة؛ ويبدو هذا واضحاً فيما ذكره أصحاب التراجم والسير وفي الآثار الأندلسية والمشرقية التي نسبت اليه.

وفي مجال النثر يمكن الرجوع الى كتابيه: جذوة المقتبس وكتاب تسهيل السبيل الى علم الترسيل والأخير لايزال مخطوطاً لم استطع الاطلاع عليه[٣٣] أما كتاب الجذوة فقد تضمن جملة وافرة من تراجم العلماء والأدباء المشهورين في الأندلس، ولا يصعب على الدارس أن يلاحظ الأسلوب الذي اتبعه الحميدي في تراجمه من حيث السمات الفنيّة وفي مقدمتها:

السهولة والوضوح سواء في اللفظة المفردة أو التعابير اذْ لا يجد فيها ما يصعب فهمه وذلك على الرغم من الايجاز الذي تتسم به تلك التعابير، ومن أمثلة ذلك قوله ضمن ترجمة أبي عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي: (وكان لأبي عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانته وصيانته، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق؛ فساد بعد خمول وأثرى بعد فقر وأشير بالتفضيل اليه إلا انه غلب الشعر عليه..)[٣٤] ثم يورد بعد هذا نماذج من شعر ابن عبد ربه في أغراض مختلفة.

ويبدو الطابع الأدبي في ثقافة الحميدي واضحاً من خلال اختياره للأعلام الذين ترجم لهم واورد مختارات من أشعارهم في أغراض مختلفة مع التركيز على ما اشتهر به كل شاعر والتعليق على النصوص وابداء الرأي فيها ومحاولة الموازنة بينها وبين نصوص أخرى مماثلة للمشارقة أو الأندلسيين مما يدل على ملكته الأدبية وموهبته الشعرية هذا فضلاً عن الاشارات العديدة الى أحداث التاريخ الأندلسي وما يتعلق بذلك من الأشخاص والأحوال ولا يخفى أن هذه السمات قد جعلت الفرق واضحاً بين أسلوب الحميدي في الجذوة وأسلوب المؤرخين والأدباء المعاصرين له أو الذين جاؤوا بعده ممن جاءت كتبهم واسعة وتراجمهم مسهبة تعتمد الاستطراد والاستقصاء.

ومن أقواله في مقدمة حديثه عن افتتاح الأندلس حين عرض لأسباب تاليفه الجذوة: (على أني أعلم أن هذا المقصد الذي سبق الى تقييده المؤرخون من أسلافنا وتلاهم التابعون لهم في ضبطه من أخلافنا، جمٌّ الفائدة عظيم العائدة لما فيه مما لايخفى على متميز الى جهة من جهات المعرفة متحيّز ولحرصي على قبول هذا التنبيه وأن قل ماعندي فيه؛ بادرت الى جمع المفترق الحاضر واخراج ما في الحفظ منه واتعاب الخاطر، رجاء الثواب في تنويه بعالم وتنبيه على فضل فاضل وتوقيف على غرض، وتحقيق لنسب او خبر...)[٣٥].

ولا يخفى ما ينطق به هذا النص من وضوح الأسلوب وسهولة التعبير مع الأخذ بجانب مناسب واف من أوجه البيان العربي على الرغم من أن المضمون علمي تاريخي ويمكن القول بأن الحميدي يلتقي في هذه السمة مع أبي مروان بن حيان المؤرخ الأديب الأندلسي الذي كتب التاريخ بأسلوب الأديب الأريب.

على أن أبرز ما يستطيع الباحث اتخاذه دليلاً على موهبة الحميدي الأدبية وملكته وطبعه ممارسته نظم الشعر وذلك من خلال مانسب اليه في المصادر من مجموعات شعرية في أغراض وموضوعات متقاربة؛ نحاول النظر فيها للوقوف على أهم سماتها الفنية مضموناً وشكلاً.

يقول الحميدي في أبيات له:

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً

سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل مـــن لقاء النـــاس إلا

لأخذ العلم أو لصلاح حـــــال[٣٦]

وهذا المعنى ـــ فيما يبدو لي ـــ معنى اجتماعي يصوّر جانباً من العلاقات التي تقوم بين الناس ودور العالم فيها وما يتوجب عليه من خلاله فهو لا ينعزل عن الناس وينقطع عن الحياة ولا يفرّط بتضييع الوقت بما لا فائدة من ورائه وانما يسهم بالقدر الايجابي النافع له ولأبناء مجتمعه.

أما على صعيد الشكل فإن الأبـــيات تدل على اســـلوب الحميدي الذي يتسم بالسهولة والوضوح والبعد عن الغموض مع حسن الرصف واعتماد الأوجه البلاغية المناسبة البعيدة عن التكلف.

ومما يتصل بهذا المعنى قـــول الحميدي داعياً الى طلب العلم والحث عليه:

من لـــم يكن للعلم عند فنائه

أرجٌ فإن بقـــــــــاءه كفنائه

بالعلم يحيا المرء طول حياتـــه

واذا انقضى أحـــياه حســـن ثنائه[٣٧]

ولا يخفى ما تشير اليه الأبـــيات في فضل العلم وأهله، ذلك الفضل الذي لا يقتصر على حياة المرء فقط وانما يشمله بعد مماته بحسن الثناء والدعاء له بما يتحصل من فوائد للمتعلمين المقبلين على علمه عبر الدهور المتطاولة.

ويتناول شـــعر الحميدي موضوعاً آخر يختلف عن هذا الموضوع؛ أنه موضوع الزهد والورع الذي صوره الشـــعر العربي في مختلف عصوره وفتراته ولكن الحميدي في هذا الشعر يؤكد على العقيدة والسلوك ويعرض المعاني من وجهة نظر فقيه داعية يحرص على تحقـــيق العلم والعمل، على وفق الكتاب الكريم والســنة المطهرة، يقول الحميدي:

كـــلام الله عز وجل قولي

وما صحـــــــت بـــــــه الآثار ديني

وما اتفق الجميع عليه بدءاً

وعوداً فهو عن حـــــق يقـــــيني

فدع ما صدَّ عن هذا وهذا

تكنَّ على عين اليقـــــــــين[٣٨].

ومما تجدر الاشارة اليه أن الحميدي لا يقـف عند الدعوة الى التمسك بالكتاب والسنة وانما يجعل اجماع الصحابة من الأمور المعتمدة الى جانبهما.

ولم تكن هذه الدعوة الا ترجمة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف المشهور (.... وقد تركت فيكم ما ان تمســكتم بـــه فلن تضلوا ابـــداً أمراً بـــيناً كتاب الله وســـنة رسوله..)[٣٩].

ونجد تأكيداً واضحاً من قبل الحميدي على وجوب الاقتداء بالصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ بعد رســـول الله صلى الله عليه وسلم في شعره وابراز دورهم في حفظ الدين ونشره مع الحذر الشديد من الانتقاص من قـــدرهم أو تجاهل ذلك الدور العظيم الذي أدوه، يقول أبو عبد الله:ـــ

كـــل من قـــال في الصحابة سوءاً

فاتهمه في نفســـــــه وأبـــــــيه

وأحـــق الأنـــــام بالـــعدل من لم

ينتقـــــــــصهم بمنطق في فيه

واذا الـــقلب كـــــان بالودّ منهم

دلّ أن الهـــدى تكامـــل فيـــه

وبهذا يوضح لنا الحميدي المـــدأ المهم الأســـاس والموقـــف السليم من الصحابة الكرام وما يتوجب على المسلم تجاههم من التقدير والاعتراف بفضلهم وتجنب كل ما يسيء اليهم وهو

مبـدأ معروف ونهج أصيل لجمهور علماء الأمة الاسـلامية ويتصل بهذه المعاني أبيات توضح لنا نفسية أبي عبد الله وخلقه وعمق يقينه بالله عز وجل مما يتعلق بأصول العقيدة الصحيحة والنهج المستقيم والزهد الحقيقي المشروع يقول مصوّراً هذه المعاني وغيرها:ـ

طريق الزهد أفضل ما طريق

وتقوى الله تالية الحقوق

فثق بالله يكفك واستعنه

يعنك ودع بُنّيات الطريق[41]

ونصل الى مجموعة أخرى من أشعار الحميدي، ربما كان موضوعها مختلفاً عن موضوع الأبيات السابقة، ذلك أنها تعرض جانباً شخصياً فردياً يتعلق بالحميدي نفسه وفي مرحلة من مراحل حياته هي مرحلة البعد عن الوطن والأهل وفراق الأحبة بكثرة التنقل والسفر الى البلاد النائية مع طول المدة حتى غدا الفراق أليفه والبعد خيمه بدل الأحبة والأعزاء من الأهل والأصدقاء؛ يقول في هذه المعاني:

ألفت النوى حتى أنست بوحشها

وصرتُ بها لا بالصبابة مولعا

فلم أحص كم رافقتهُ من مرافقٍ

ولم أحصِ كم خيمت في الأرض موضعا

ومن بعد جوب الأرض شرقاً ومغرباً

فلابدّ لي من أن أوافي مصرعا[42]

ومن التأمل في معاني هذه الأبيات ودلالاتها يبدو للباحث أن وقت نظمها ربما كان حين اقامته ببغداد بعد تنقل طويل وسفر دائم، كما يبدو في الأبيات نفسٌ من الضجر المشوب بالشوق وما يقرب من اليأس من لقاء الأهل أو العودة الى الوطن لدرجة صار الشاعر معها يترقب النهاية المحتومة دون أن يفكر فيما سوى ذلك.

ولكن الأبيات لا تخلو من دلالة ايجابية يمكن أن يلحظها الباحث وهي حرص الأندلسيين على الرحلة في طلب العلم فضلاً عن الدوافع الدينية. ومعلوم أن هذه الرحلات من الأندلس الى المشرق أو العكس شغلت مكاناً بارزاً في حياة الأندلسيين وعنيت المصادر الأندلسية والمشرقية بتسجيلها ومن يراجع كتاب نفح الطيب للمقري يجده قد افرد جانباً مهماً بارزاً من كتابه للحديث عن الراحلين من الأندلس الى المشرق أو من المشرق الى الأندلس[43].

كتاب جذوة المقتبس

هذا هو الكتاب الذي وصل الينا مطبوعاً من مؤلفات الحميدي الكثيرة، وكان من أهم أسباب شهرته ودلالة فضله وعلمه وسعة اطلاعه وذكائه وقوة حافظته، وعنوان الكتاب (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس) وقد يضيف بعضهم الى هذا العنوان: ((واسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر))[44].

أما الجزء الأخير من العنوان فقد ذكره الحميدي في مقدمته لكتابه ولعلّه قد اراد به تعريف محتويات الكتاب وموضوعاته فهي لا تخرج عن أخبار الفقه والأدب والشعر وأعلام هذه الفنون من ذوي النباهة والفضل والعلم.

غير أن العنوان الموجز هو الشائع المعروف في أوساط المؤرخين والأدباء في العصور المختلفة، ولعلّ ذلك للاختصار خاصة وأن العنوان المختصر هذا قد عبر عن موضوعات الكتاب واستوعب الغاية التي ألّف من أجلها. ومن النظرة الأولى في الكتاب بعد التأمل في مدلول عنوانه يتبين أنه عرض موجز لأحوال ولاة الأندلس أو ما يمكن تسميته بالتاريخ السياسي للأندلس منذ الفتح حتى عصر المؤلف، أو تاريخ

اقامته بالأندلس إلى حوالي سنة ٤٤٨ وتكاد هذه المختصرات تشكل مقدمة الكتاب بالنسبة لما يأتي بعدها من المادة العلمية التي تغطي القسم الأكبر من مساحته، وهي عبارة عن تراجم مختصرة لمشاهير العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء وغيرهم ممن يشملهم مصطلح ــ ذوي النباهة ــ الوارد في مقدمة المؤلف أو عنوان الكتاب. وتبدو عناية المؤلف بثقافة المترجم له ولمحات من جوانب حياته وشخصيته إلى جانب الايجاز الشديد لآثاره ومؤلفاته وذكر نماذج من أشعاره، مع ما يتضمن ذلك كله من إشارات إلى الأحوال الاجتماعية والسياسية وغيرها.

وأما الدافع إلى تأليف الكتاب فيمكن الوقوف على جوانب منه بالتأمل في جملة من أقوال المؤلف نفسه ومنها قوله:

(.... أما بعد فإن بعض من التزم واجب شكره عليَّ جميل بره، لما وصلت إلى بغداد وحصلت من إفادته عليَّ أفضل مستفاد، نبهني على أن أجمع ما يحضرني من أسماء رواة الحديث بالأندلس وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر ومن (له) ذكر منهم أو من دخل اليهم وخرج عنهم في معنى من معاني العلم والفضل والرياسة والحرب...)[٤٥].

ويعقب الحميدي على طلب صاحب الفضل الذي أشار إليه بتعقيب معبّر عن روح علمية تتحرى الدقة وتحرص على اتباع النهج العلمي الصحيح المعتمد على المصادر والمراجع والتثبت من صحة الأخبار والمعلومات التي يريد الاستعانة بها في اخراج مؤلفه إلى حيز الوجود، وهي أمور لازمة في كل بحث أو تأليف يقوم به باحث أو طالب علم، ولا يتردد ــ استناداً إلى هذه القواعد ــ أن يعلن عن حاجته الماسة إلى الأدوات والوسائل الكاملة لانجاز مشروعه العلمي المهم؛ فيقول بأسلوبه الصريح الواضح، المتسم بالسهولة واليسر والايجاز والبعد عن التكلف والصنعة:ــ

(فأعلمته ببعدي عن مكان هذا المطلوب، وقلة ما صحبني من الغرض المرغوب، واني إن رمته على قلة ما عندي وتعاطيته على إنقطاع موادي وبعدي لم أخل من أحد وجهين: إما أن ابخس القوم حظهم وأنقصهم فضلهم، فاتعرض للائمتهم فيما أوردت، وأقف موقف الاعتذار فيما له قصدت، وإما أن أوهم من رأى قلة جمعي ونهاية مافي وسعي أنه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد إلا نزر من الأعداد، فأكون بعد احتفالي لهم قد قصرت بهم، وعند اجتهادي في ذكرهم قد أخللت بفخرهم، وما أراني مع ذلك إلا متصدياً لمذمة الطائفتين منتظماً لتتبع الفرقتين...)[٤٦].

وهذا ــ فيما نرى ــ غاية ما يصل إلى فهمه وتصوره الباحث العلمي النزيه من مقومات المنهج السليم والتواضع والوضوح والصراحة مع حسن التقدير للأمور وسلامة المنطق واستقامة الحجة دون مواربة أو تشويش، أو تردد. أو غموض.

ولعلّ من تمام هذا المنهج ودلائل سلامته وقوته ووضوحه أن الحميدي يعقب على هذا باشادته بعلماء بلده ــ الأندلس ــ وذكر مآثرهم وجهودهم العلمية والثقافية والأدبية، ويخص بالذكر منهم طائفة من مشهوريهم كابن حارث وابن عبد البر وابن حيّان من المؤرخين، ويلمح إلى أنه لو حضرته جوانب وافية من آثارهم وسمات ثقافاتهم، واقتصر في ذلك على الأعيان وحذف التكرار لاستطال البحث وامتد التأليف إلى مساحة كبيرة يصعب جمعها واخراجها في ظل الظرف الذي كان يعيش فيه، ولم يغفل الاشارة إلى أنه قد سبقه في هذا النوع من التأليف علماء آخرون من أمثال الذين ذكرهم وآخرين غيرهم ولا يخفى ما في هذا من دلالة التواضع العلمي والأمانة العلمية. ومع ذلك كله فإنه أقدم على التأليف تلبية لرغبة من طلب إليه إنجازه وأداءً لحق قومه عليه وهو في المشرق معتمداً ــ بعد الله تعالى ــ

على ذاكرته وما تعيه من محفوظه الكثير في الأخبار والأشعار، والسنين والحوادث ممن عاصره أو سمع به من الثقات ذوي التحري والضبط وصدق القول واستقامة الخلق يقول في هذا:

(... على أني أعلم أن هذا المقصد الذي سبق إلى تقييده المؤرخون من أسلافنا وتلاهم التابعون لهم في ضبطه من أخلافنا جمٌّ الفائدة عظيم العائدة لما فيه مما لا يخفى على متميزه إلى جهة من جهات المعرفة متميز، ولحرصي على قبول هذا الشبيه وإن قلّ ما عندي فيه، بادرتُ إلى جمع المفترق الحاضر واخراج ما في الحفظ منه وإتعاب الخاطر رجاء الثواب في تنويه لعالم وتنبيه على فضل فاضل وتوقيف على غرض...)[٤٧].

ومن هنا نستطيع القول بأن دافع تأليف الكتاب كان مزدوجاً، حيث لقي طلب ذلك الصديق رغبة وهوى في نفس الحميدي في نقل مآثر بلده والاشارة بفضل أهله وعلمائه ومعرفة مقدار مابلغوه في مضمار العلم والثقافة والأدب، يقول بعضهم:

(وقد ألف الحميدي الجذوة في العراق ولأهل العراق وعنهم يرويها بعد ذلك أهل الأندلس، وليس يبعد أن يكون مما أثار رغبة القوم في تأليف هذا الكتاب أن الحميدي كان يحن إلى وطنه فيكثر ذكر مواطنيه ويطنب في عد مآثرهم فأذكى ذلك الحديث رغبة أصدقائه فألحوا عليه في جمع أحاديثه في كتاب فكانت جذوة المقتبس)[٤٨].

واذا كان هذا الترجيح يقرب أن يكون مؤكداً كما يتوقع من حال الحميدي وصلته بالناس وذوي العلم منهم بخاصة فإن الشيء الذي لا يستطيع الباحث إغفاله أن وجود الحميدي نفسه بين المشارقة وفي مجالسهم العلمية والأدبية والثقافية بصورة خاصة؛ دليل واضح قوي على مكانة الأندلسيين وما توصلوا إليه من التقدم والازدهار في مضمار العلم والثقافة والأدب، وكذلك فإن جهود الحميدي ــ لا مجرد وجوده وشهرته ــ في ميدان بث العلم ونشره بين المشارقة الذين كانوا يتابعون عن كثب وبوساطة الراحلين الاندلسيين خطوات هؤلاء وجهودهم العلمية ونتاجاتهم الثقافية والأدبية ولعلّ مما يتصل بهذا ويؤيده الظاهرة التي عرفت لدى المشارقة بسفرهم ورحلاتهم إلى الأندلس للتعلم والتعليم والافادة من آفاق التطور الذي كانت البلاد الأندلسية تخطو خطواته بعزم وثبات وهمة عالية واستمرار وكتب التاريخ الأندلسي تزخر بالاشارات الصريحة إلى ذكر أسماء الراحلين المشرقيين إلى الأندلس اساتذة ومعلمين وشيوخاً منذ الفتح الاسلامي وحتى عصر الحميدي، حتى إن عديدين من هؤلاء الراحلين استوطنوا الأندلس ولم يعودوا إلى المشرق وطنهم الأول، تماماً كما فعل الحميدي نفسه حين استوطن المشرق ولم يعد إلى الأندلس.

مصادر الكتاب

سبقت الاشارة إلى ان الحميدي لم تكن لديه المصادر التي تعينه على البحث والتأليف حسب اعترافه هو وانما كانت الذاكرة وقوة الحافظة من أهم الأمور التي اعتمد عليها في ايقاد جذوته وإمدادها بأسباب النور والمعرفة غير أن واحداً من المصادر المتأخرة ذكر ما يفيد بأن الحميدي قد وضع كتابه مختصراً به المقتبس لابن حيان[٤٩]، ثم تابعه أحد الباحثين المحدثين فقال عند تعريفه بالحميدي وآثاره: (.. وصل إلينا من تآليفه كتابه جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس لخص فيه كتاب المقتبس لابن حيّان...)[٥٠].

بينما نجد باحثاً آخر عد الادعاء السابق: (وهماً لا أساس له للفرق بين الكتابين في المعنى والمبنى)[٥١].

والذي نراه أن هذا هو المرجح بل المعوّل عليه، ذلك أن المتأمل في الجذوة وفي مصادر الأخبار والأشعار التي يوردها

الحميدي؛ يلاحظ أنه لا ينص على كتاب معين أخذ عنه معلوماته وأخباره، ولكنه مقابل ذلك يسند رواياته إلى اعلام من شيوخه وفي مقدمتهم أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الذي يروي عنه الحميدي أكثر أخباره فلا تكاد صفحة واحدة تخلو من احالة إليه وتعويل عليه، حتى ذهب بعض الباحثين إلى المبالغة في النظر إلى هذا الأخذ؛ والتهويل في النقل عن ابن حزم فقال: (وكتاب الجذوة معرض لمعرفة ابن حزم لشؤون الاندلس ايضاً فاكثر ما فيه انما يرويه الحميدي عن استاذه هذا)[٢٢] قد لا يكون الأمر بهذه الصورة المكبرة التي تكاد تحصر الجذوة في ميدان النقل والاستنساخ، وذلك لأكثر من سبب وجيه؛ فالحميدي لم يفرد ابن حزم بالنقل واعتماد الروايات وإنما نقل عن غيره من شيوخه وقد ذكرهم بأسمائهم وعددهم كثير، وفي مقدمتهم بعد ابن حزم: أبو عمر بن عبد البر وقد بلغ عدد المواضع التي نقل فيها عن ابن حزم مائتي موضع في الجذوة في حين يبلغ عدد المواضع التي نقل فيها عن ابن عبد البر مائة موضع تقريباً. ويلاحظ أن الحميدي ينص صراحة عند نقله عن ابن عبد البر بأنه شيخه ولا يشير إلى هذا عند أخذه عن ابن حزم بل يذكره باسمه فيقول: قال أبو محمد علي بن أحمد، أو قال ابن حزم، أو ذكره ابن حزم وهكذا.

أما ما يتبقى من الروايات والأخبار في الكتاب ــ وهو يشكل القسم الاكبر منه ــ فإننا نجد الحميدي يحيل فيه إلى أشخاص آخرين من أساتذته وشيوخه أو غيرهم، وقد لا يذكر السند عندما يريد الايجاز والاختصار أو يجهل القائل فلا يذكر سند روايته أو أخباره.

وممن يحيل اليهم: الخشني صاحب كتاب قضاة قرطبة، وأبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري، هذا إلى جانب عدد من المشارقة الذين ينقل عنهم ومنهم أبو بكر الخطيب والأمير أبو نصر بن ماكولا وآخرين.

من هنا يتبين بوضوح أن النصوص التي أوردها الحميدي عن ابن حزم لا تشكل سوى جزء من مجموع النصوص التي وردت في الجذوة، ولعلنا بعد هذا نستطيع القول بأن المصدر الرئيس لكتاب الحميدي؛ ذاكرته وحفظه، وأن ذاكرته قد اعتمدت أصلاً مصادر عديدة أندلسية ومشرقية ولم تفرد مصدراً واحداً دون غيره بالنقل والاعتماد.

ولقد يبدو للباحث المتأمل أثر الاعتماد الكبير على الذاكرة وبعده عن أصله على نحو ما عرضه بعضهم بقوله: (غير أن بعد المؤلف عن بيئته الأولى وقلة مصادره كانا يحدان من انطلاقه أحياناً ويحولان دون تعرضه الوافي لأبناء الأندلسيين، وربما ساقه ذلك إلى اغفالهم وقد اعتذر عن ذلك في خطبة كتابه..)[٢٣].

وعلى هذا فإن قلة المصادر بين يدي مؤلفنا كان لها أثر سلبي على جذوته يمكن أن تلاحظ بوضوح في التراجم المختصرة الموجزة التي يودّ كل قارئ متتبع لو أن الحميدي قد القى المزيد من الضوء على حياة وآثار صاحبها خصوصاً وأنه كان يلمح دائماً إلى فضل أصحاب التراجم في ميادين العلم والأدب.

منهج الحميدي في الجذوة

واذا أعدنا النظر في جذوة المقتبس بغية الوقوف على الخطوط العامة للمنهج الذي سار عليه الحميدي في تأليفه وجدنا بأن المؤلف قد سار على وفق خطين عامين رئيسين مع مقدمة ضمنها أسباب تأليفه الكتاب وموقفه من المؤلفات السابقة في مضمار مؤلفات الأندلس وأحوالها وأحوال العلماء والأدباء والمؤرخين فيها، كما عرض في المقدمة كذلك إلى أهم المصاعب التي اعترضته بعد عقده العزم على انفاذ فكرة تأليف الجذوة وفي مقدمة ذلك قلة المصادر أو انعدامها مع أنها الأصول الأندلسية التي لابد منها لنقل صورة ما عن العلم والعلماء

والأدب والأدباء وألوان الثقافة والمعرفة في الأندلس؛ مما جعله يضطر الى الاعتماد على ذاكرته وحفظه بالدرجة الأولى.

أما الخطان الرئيسان في منهج أبي عبد الله الحميدي في جذوته.

فأولهما: يبدو في الفصل الموجز الذي عقده لعرض أحداث التاريخ الأندلسي منذ الفتح وحتى أوائل القرن الخامس للهجرة بإيجاز شديد، عرض فيه للحديث عن عصر الولاة مبتدئاً بالفتح وماتلاه ثم ذكر الولاة الذين تعاقبوا على حكم الأندلس وذكر سماتٍ وملامح موجزة لحياة وسيرة كل منهم وأبرز الأحداث في فترات ولاياتهم وجعل ختام حديثه عن هذه الفترة ايجاز القول في المشهورين من التابعين والمجاهدين الذين دخلوا الأندلس فقال: (... وسنذكر إن شاء الله في الأبواب ممن دخل الأندلس للجهاد من التابعين جماعة ومنهم محمد بن أوس ابن ثابت الأنصاري يروي عن أبي هريرة..)[٥١] ثم يورد اسماء عدد من هؤلاء وهم: حنش بن عبد الله الصنعاني. وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وزيد بن قاصد، وموسى بن نصير.

ثم يختم الحميدي حديثه هذا بتعريف مختصر جداً بجزيرة الأندلس وبهذا يكون القدر الذي استغرقه هذا الحديث قريباً من ثماني صفحات من كتابه، وهو قدر يسير ــ من حيث الكم ــ اذا ما نظر إليه من خلال الأحداث والأشخاص الذين تناولهم بالتعريف والترجمة.

ويعرض الحميدي بعد ذلك ضمن الخط العام الأول في منهجه إلى تلخيص القول في فترة الامارة فيمهد لها بكلام موجز عن نهاية فترة الولاة ويبدأ حديثه بالتعريف بأول أمراء بني أميّة ومؤسس دولتهم في الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، ويورد طرفاً من سيرته وجهاده في اقامة الامارة بعد هروبه من المشرق واختفائه في المغرب الاسلامي قبل عبوره إلى الأندلس وتناول بعد هذا الأمراء الأمويين من ذرية عبد الرحمن الداخل حسب تسلسلهم الزمني فتحدث عن هشام ثم الحكم فعبد الرحمن بن الحكم محمد بن عبد الرحمن فالمنذر بن محمد وأخيه عبد الله بن محمد من بعده؛ فعبد الرحمن الناصر فالحكم المستنصر فهشام المؤيد.

ثم يخص بالتعريف الموجز أحوال حكام فترة الحجابة وهم: المنصور بن ابي عامر وولداه عبد الرحمن وعبد الملك.

ويبدو واضحاً أن الحميدي التزم بمنهج الاختصار الشديد في كل ترجمة، غير أنه لم يغفل التعرض لذكر جملة من النصوص الأدبية في الشعر والنثر لعدد من هؤلاء الأمراء الذين كان فيهم الشعراء والخطباء مثل عبد الرحمن الداخل وسليمان المستعين، وقد جاء هذا كله فيما يقرب من ثلاثين صفحة من الكتاب.

وبهذا يكون أبو عبد الله قد جانب الاسترسال والاسهاب في عرضه التاريخي السياسي لفترات الأندلس وحتى عصره، ولا يجد الباحث ذكراً لعصر الطوائف سوى ما أورده من لمحات واشارات تتعلق بدولة بني عباد في اشبيلية. وقد يستطيع الباحث التماس العذر للحميدي باغفاله الحديث عن فترة مهمة من فترات تاريخ الاندلس العلمي والثقافي والسياسي الى جانب كونها الفترة التي ولد فيها الحميدي وترعرع وشهد احداثاً كثيرة من أوليات قيام تلك الدول في فترة تقرب من عشرين عاماً الأولى من حياته قبل أن يسافر إلى المشرق. ويبدو هذا المسوغ في اعتذار الحميدي نفسه عن قلة المصادر والبعد عن الوطن وبخاصة في فترة الازدهار والتقدم العلمي والثقافي لتلك الدول.

وربما استطاع الباحث أن يعتذر للحميدي بأنه لم يرد أن ينقل الجانب السلبي من حياة مجتمع الطوائف حكاماً ومحكومين لما في ذلك من الألم والحسرة اللذين تذكره بهما مواقف أمراء

الطوائف فيما بينهم أو مع الأعداء وهي مواقف محزنة مؤلمة في كثير من جوانبها وسماتها ولعلَّ الحميدي ــ انطلاقاً من هذا ــ لم يرد أن يشوه الصورة المشرقة التي كان ــ على ما يبدو ــ يعرضها دائماً عن قومه وما توصلوا إليه وما قطعوه من اشواط في ميادين العلم والأدب وجوانب الحضارة المزدهرة التي كانت مناراً لمن حولهم ومركز اشعاع يغرى كثيراً من غير المسلمين بالسفر إلى الأندلس والعيش فيها ولو فترة محدودة بقصد التعلم والأخذ بأسباب الثقافة والتحضر.

ولكن يبقى السؤال الذي لابد منه وهو: لمَ أفرد الحميدي دولة بني عباد بالاشارة وخصها بالذكر دون سائر دول الطوائف وقد كان يسعه السكوت بصورة تامة عن تلك الفترة؟.

ربما كان سبب ذلك أهمية هذه الدولة في مضمار العلم والأدب ووجود نجوم لامعة في سماء تلك الدولة سواء من الأمراء كابن عباد نفسه أو من الوزراء كالوزير أبي بكر بن عمار أو من الشعراء أو الأدباء المشهورين مثل ابن زيدون وهؤلاء وغيرهم كانوا جميعاً من أعلام الأدب والثقافة وكانت لهم أدوار وآثار لا تنكر.

وقد يرد في ذهن المتأمل في موقف الحميدي أنه لم يكن لديه من المعلومات التي احتفظت بها ذاكرته عن الدول الأخرى ما يستطيع به أن يعرف بأحوالها ولو بإيجاز شديد على نحو ما فعل بالنسبة للفترات السابقة.

ومهما يكن فإن الثابت المعروف أن الحميدي قد غادر الأندلس سنة ٤٤٨هـ. ولم يعد إليها بعد ذلك أبداً فكان ذلك تسويغاً يمكن أن يضاف إلى ما يلتمس له من اعذار.

على أن الحميدي مع ذلك لم يهمل الأمر على الاطلاق وانما اكتفى باشارة عابرة أوردها في ختام حديثه عن فترة الامارة حين قال: (... وهناك ملوك أُخر قد تقاسموا البلاد وغلب كل سلطان منهم على جانب منها عند حدوث الفتن لم يُتعرض لذكرهم، اذْ لم يدع واحد منهم خلافة ولا انتسب بعد إليها، وحقيقة أخبارهم أيضاً قد بعدت عنا ونسأل الله أن يتدارك الكل بما فيه الصلاح الشامل، ويجمع كلمتهم على ما يرضيه برحمته..)[٥٦].

وأما الخط الثاني: الهام في منهج الحميدي في جذوته وهو الخط الذي يبدو أنه المقصود بالتأليف أصلاً ــ كما يفهم من كلام الحميدي في مقدمته؛ من التأمل في الكتاب نفسه اذْ يقول بعد هذا الايجاز عن التاريخ السياسي: (... وقد آن أن نرجع إلى ذكر المقصود من الأسماء على ترتيب الحروف ونبدأ بذكر المحمدين والاحمدين منهم أولاً...)[٥٧].

ويمضي بعد هذا في التعريف بالأعلام من أهل بلده مبتدئاً بترجمة من إسمه محمد وأول من يترجم لهم من المحمدين (محمد بن محمد الصدفي محدث أندلسي، سمع أبا خالد بن علي بن مالك الفطيني مات بالأندلس...)[٥٨]. ثم يختم هذه المجموعة بترجمة مختصرة أيضاً وهي ترجمة: (محمد بن يعيش أبو عبد الله، يروي عن ابن الطحان، اخبرنا عنه أبو عبد الله بن عثمان بن مروان العمري النحوي...)[٥٩].

ويبلغ عدد هذه التراجم مائة واحدى وسبعين ترجمة (١ــ ١٧١) يبدأ بعد هذا بالترجمة لمن اسمه أحمد سائراً على النهج نفسه مبتدئاً بترجمة أحمد بن محمد بن عبد ربه[٦٠]. وهي ترجمة طويلة الى حدٍ ما وذلك بسبب ما أورده في ثناياها من نصوص شعرية لابن عبد ربه في أغراض مختلفة ثم يختم هذه المجموعة بترجمة موجزة لعلم من أعلام الأندلس وهو: (أحمد بن يحيى بن زكريا بن الشامة، بالشين المعجمة، يروي عن أبيه، روى عنه أبو القاسم خلف ابن القاسم بن سهل وقد ذكرنا له خبراً في باب

الخاء في ذكر خلف بن قاسم)[11].

وتستغرق هذه التراجم التسلسل من ١٧٢ ــ ٢٥٧.

ويأتي الحميدي بعد ذلك إلى الترجمة لمن اسمه ابراهيم في مجموعة أخرى نبدأ من ٢٥٨وتنتهي إلى ٢٩٤ ويكون مجموعها ستاً وثلاثين ترجمة.

ويأتي الحميدي بعد ذلك إلى من اسمه اسماعيل فيما يقرب من عشر تراجم (٢٩٥ ــ ٣٠٤) ومن أسمه اسحق (٣٠٥ ــ ٣١١). ومن إسمه أدريس (٣١٢ ــ ٣١٣).

ويتناول بالترجمة بعد هذه المجموعات من اسمه أيوب في ثلاث تراجم: (٣١٤ ــ ٣١٦) ومن اسمه أبان (٣١٧ ــ ٣١٨) ومن اسمه أسد (٣١٩ ــ ٣٢٠) ومن أسمه أسلم (٣٢١ ــ ٣٢٢) ومن أسمه أصبغ (٣٢٣ ــ ٣٢٥).

ثم يجمع بعد هذا جملة من التراجم التي تحمل أسماء أخرى تحت عنوان: (أفراد الأسماء) مثل أبيض وأسامة وأميّة والأسعد ويستغرق ذلك خمس تراجم (٣٢٦ ــ ٣٣٠).

يأتي الحميدي في مسيرته العلمية الأدبية التاريخية إلى من اسمه مبدوءٌ بحرف الباء، غير أنه لا يبدأ بحرف الهمزة حسب الترتيب الهجائي ــ كما يتوقع وانما يبدأ بمن اسمه (بقي) في ترجمتين (٣٣١ ــ ٣٣٢). وبكر في ترجمتين أيضاً (٣٣٣ ــ ٣٣٥) ويتبع هذا بما يسميه أفراد الأسماء ممن يبدأ أسمه بالباء أيضاً مثل: بلج. بشر. بحيح البراء. بشار وذلك في خمس تراجم (٣٣٦ ــ ٣٤١). ويمضي الحميدي على هذا النهج في عرض التراجم فيتناول الأسماء المبدوءة بالتاء والثاء والجيم والحاء،.. حتى يصل إلى الياء وهي خاتمة الأحرف حسب الترتيب الهجائي؛ ولا ينسى ان يختم تراجم كل حرف بأفراد الأسماء على نحو ما ذكرنا نماذج منه في اعلاه. ويلاحظ خلال ذلك أن الحميدي لايلتزم بترتيب الأسماء على حروف الهجاء ترتيباً مطرداً في أي من الخطوتين اللتين اتبعهما في كل حرف من حروف الهجاء.

ويختم الحميدي كتابه بما يطلق عليه ((الجزء العاشر من تجزئة الأصل)). وهو آخر جزء من الكتاب وقد جعله في صورة تختلف عن نهج التراجم السابقة اذْ يسير فيه على نهج الأبواب وقد قسمّها إلى خمسة وهي:

١ــ باب من ذكر بالكنية (٩١٧ ــ ٩٥٩) ومنهم أبو محمد الحجازي: أبو اسحق بن حمام. أبو الأصبغ ابن الأصبغ بن عبد العزيز.

٢ــ باب من نسب إلى أحد آبائه ولم يعلم أسمه (٩٦٠ ــ ٩٧٦) ومنهم: ابن آمنة. ابن أبيض. ابن التياني. ابن جاخ البطليوسي. ابن سيد: امام في اللغة العربية.

ابن أبي سعيد القاضي؛ أندلسي جليل.

٣ــ باب من ذكر بالنسبة (٩٧٧ ــ ٩٨٢) وهم:

البزلياني. الجرفي. الخندفي. الزبيري. اليحصبي. اليربوعي.

٤ــ باب من ذكر بالصفة (٩٨٣ ــ ٩٧٤) وهم:

غلام الفصيح الأندلسي الناجم: شاعر أديب؛ ذكره أبو عامر ابن شهيد وذكر له أخباراً مع صاعد.

٥ــ باب النساء: (٩٨٥ ــ ٩٨٧) وهنّ صفية بنت عبد الله. ومريم بنت أبي يعقوب، والغسانية: شاعرة تمدح الملوك وحين يأتي الحميدي على نهاية هذه الأبواب وما احتوته من التراجم[12] المنوّعة حسب اختصاص أصحابها يختم كتابه مباشرة بعدها بقوله:

(هذا الذي حضرنا من المعنى المقصود قد جمعناه بعون الله عزوجل لمقتبسيه أيام كوننا بالعراق والوعد باقٍ علينا إن أُمهلنا إلى سلوك تلك الآفاق، فلنعد الآن إلى مابدأنا به بعد أن نستغفر الله مما لا يوافق رضاه ونسأله العون على طاعته وتقواه....)[13].

وبهذا يصل عدد التراجم إلى الف ترجمة تقريباً هذا سوى ما

تطرق إليه من أحاديث التاريخ والسياسة وسير الولاة والأمراء منذ الفتح حتى أوائل القرن الخامس للهجرة.

ويبدو بصورة واضحة لمن يتأمل في هذه التراجم أنها تتفاوت في مقاديرها من حيث الايجاز الشديد الذي لا يكاد يتجاوز السطور القليلة وهذا يشكل القسم الأكبر من هذه التراجم.

وبين التعريف الذي يجنح الى قليل من التفصيل مع ذكر نماذج من الشعر لصاحب الترجمة؛ مثل ترجمة أبي محمد بن حزم وترجمة ابن عبد ربه وترجمة صاعد بن الحسن وترجمة أبي عامر بن شهيد... وغيرها من التراجم المماثلة.

ويبدو كذلك للمتأمل في منهج الحميدي في كتابه الجذوة أنه قد حاول أن يجعل منهجه منوّعاً لا يسير على وتيرة واحدة وإن كان قد امتاز بطابع عام هو تناول التراجم على وفق الترتيب المعجمي للحروف وقد أشار إلى هذا في تقديمه للكتاب بقوله: (ثم نذكر سائر من قصدنا ذكره مما في الحفظ أو في حاضر الكتب، مرتباً على حروف المعجم ونعتمد ذلك أيضاً في كل حرف..)[14].

وقد لاحظ هذا التنوع مع التزام الخط العام في الترتيب أحدُ الباحثين فقال: (وألفه أولاً على ترتيب السنين بناءً على رغبة بعض معارفه ببغداد، ثم رتبه على حروف المعجم بناء على نصيحة ابن ماكولا...)[15].

واذا كان هذا النص يفيد بتحوّل الحميدي من ترتيب إلى آخر؛ فإن الصحيح المؤكد أنه قد جمع الترتيبين:

فترتيب السنين مأخوذ به في القسم الأول من الكتاب وهو الذي عرض فيه التاريخ السياسي للأندلس منذ الفتح حتى عصره.

وأما ترتيب المعجم فقد أخذ به فيما تلا ذلك من التراجم على نحو ما أوردنا بعض تفاصيله في الصفحات السابقة، وإن لم يكن التزامه به على وجه الدقة والاستقصاء غير أنه يمكن أن يقال بأن هذا كان الصفة الغالبة والطابع على الترتيب، مما أسهم في تسهيل الرجوع إلى هذه التراجم والافادة منها بالنسبة للباحثين في العصور والأماكن المختلفة.

بين الجذوة وتاريخ بغداد

ولعلّ مما يكمل الصورة الموجزة العامة لمنهج الحميدي في جذوته أن نعرض لما تردد في بعض المراجع من وجهات نظر حول هذا المنهج وصلته بمناهج أخرى في كتب سابقة؛ فقد حاول بعض الباحثين الربط بين منهج أبي عبد الله في الجذوة وبين منهج كتاب سبقه من مؤلفات المشارقة؛ فقال: (... والمنهج الذي إتبعه الحميدي شديد الشبه بمنهج الخطيب البغدادي، وأغلب الظن أنه حذا حذوه، ونسج على منواله؛ فهو يبدأ كتابه بفصل قصره على الترجمة للولاة الذين حكموا الاندلس منذ الفتح وذلك بحسب تسلسلهم الزمني؛ فابتدأ بعبد الرحمن الداخل واتبعه سائر أمراء بني أميّة وخلفائهم ثم انتقل في سائر الكتب إلى ذكر التراجم جاعلاً إياها على حروف المعجم وآثر الحميديُّ اخيراً أن يبدأ بأسماء المحمدين فالأحمدين ثم التزم النسق الألفبائي في ترتيب سائر تراجمه..)[16].

والحق أن هناك شبهاً بين منهج الخطيب البغدادي في تاريخه ومنهج الحميديِّ في جذوته وبخاصة فيما يتعلق بترتيب تراجم الكتاب حيث يبدأ الخطيب تراجمه في المجلد الثاني والثالث اذْ أفردهما لمن اسمه محمد.

أما الرابع والخامس فقد افردهما لمن اسمه احمد بينما أفرد المجلد السادس لتراجم من سموّا بإبراهيم ثم اسماعيل[17].... وهكذا يمضي الخطيب في مجلدات كتابه مستقصياً أخبار الذين يترجم لهم مع ملاحظة ترتيبهم على المعجم واتبع ترتيب

الحروف ضمن كل حرف بدقة واطراد.

ونستطيع بعد هذا ملاحظة أوجه الشبه بين المنهجين التي تبدو واضحة في التراجم إلى جانب ملاحظة أوجه الأختلاف والتباين بين المنهجين وذلك على وفق الآتي بما تسمح به طبيعة البحث من اعتماد الايجاز غير المخل:

فالخطيب يبدأ حديثه في المجلد الأول عن أرض السواد وأقوال العلماء والتعريف باسم العراق؛ وفتحه من قبل المسلمين وذكر الأحاديث الواردة في ثلب بغداد والطعن في سير أهلها، ثم يبين المؤلف فساد تلك الاحاديث وعدم ثبوت صحتها، ويذكر مقابل ذلك مناقب هذه العاصمة الأسلامية الكبرى منذ البدء ببنائها في زمن المنصور، وذكر أسماء أرباضها ونواحيها والحديث عن قصورها ومتنزهاتها ومحالّها العامة، ويتعرض بعد ذلك إلى قصور الخلفاء واسماء المساجد والأنهار والمواضع والجسور فيها.

ويضيف البغدادي إلى التعريف ببغداد وذكر مناقبها ذكر عدد من الوافدين إليها من الصحابة ــ رض ــ فيما توصل اليه من الأخبار والآثار بشأن ذلك[٦٨].

ونجد الحميدي مقابل هذا الجانب من المنهج عند الخطيب؛ يفتتح كتابه بالحديث عن تاريخ الولاة والأمراء بإيجاز شديد دون التعرض لأرض شبه الجزيرة الأندلسية أو بلدانها إلا فيما لا يتجاوز كلمات قليلة ولمحات عابرة. ونلاحظ كذلك من أوجه الاختلاف بين المنهجين؛ الأبواب التي ختم بها الحميدي كتابه وهي أبواب مختصرة لم يسر في عرض تراجمها على ترتيب معين وعلى هذا فيمكن القول بأن الحميدي قد أفاد من منهج الخطيب في جانب من منهجه الذي اتبعه في الجذوة خاصة وأنه قد أدرك الخطيب وتعرّف عليه وعقد صلة معه ــ فيما يبدو من الأشارات ــ وذلك لمدة تقرب من خمسة عشر عاماً حتى وفاة الخطيب سنة ٤٦٣.

ولكن الذي يصعب قبوله ــ فيما أرى ــ القول بأن كتاب الجذوة في منهجه صورة من كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي لما ينطوى عليه هذا القول من المبالغة والافراط في التقدير واعتماد الظواهر المشتركة بين الكتابين التي يمكن أن يسلك أكثرها في الظواهر العامة التي يعرفها كل مؤلف في تلك العصور فضلاً عن أن يكون من العلماء والأدباء والرواة والمؤرخين الذين جمعوا صفة الأدب لكل مالها من أبعاد ودلالات علمية وأدبية..

قيمة الجذوة وأهميتها

على الرغم من أن كتاب الجذوة يقع في مجلد واحد فيما يزيد على أربعمائة صفحة فإنه كان ومايزال ذا أهمية بالغة وقيمة كبيرة في أوساط الدراسات الأدبية بعامة والأندلسية بخاصة.

ذلك أن المتأمل في محتوياته بعد مطالعة مقدمته التي علل فيها تأليفه الكتاب؛ يدرك أن الرجل كان يهدف إلى تحقيق فائدة لبلده الأندلس ولأهل المشرق كذلك وفي هذا يقول بعض الباحثين:

(كان من أهم أهدافه أن يحشد لأهل العراق العدد الكثير من علماء الأندلس لتتضح الدلالة على فضل بلده وساكنيها من جملة العلم وأن يستوعب من أخبارهم ومبالغهم من العلم ما يقنع القارئين بمفاخرهم...)[٦٩] على أن الباحث يستطيع الوقوف على شيءٍ من تفاصيل هذه الفوائد سواء بالنسبة للأندلس أو المشرق.

فعلى صعيد الأندلس يعدّ الحميدي من الأعلام الذين عرّفوا ثقافة الأندلس وعلومها وأخبار علمائها إلى أهل المشرق وقضى بذلك حقاً لهم في ذمته وكان في اقامته الطويلة في بغداد يخالط علماءها ويحضر مجالس العلم فيها ويسمع الكثير عن علماء

المشرق ومؤلفاتهم ويشهد مناظراتهم العلمية والثقافية والأدبية؛ كان ذلك كله قد أعانه بل دفعه إلى تأليف كتاب الجذوة.

وكان كتاب الجذوة هذا من المصادر الهامة في تاريخ الأندلس وأدبها وأدبائها خاصة وأن كتب التاريخ التي ألفت قبله لم تصل كاملة أو لم يصل منها شيءٌ أصلاً؛ من ذلك كتاب المتين وكتاب المقتبس لابن حيان حيث لايوجد من الأول سوى مانقله صاحب الصلة وصاحب الذخيرة من النصوص ضمن تراجمهما وأخبارهما، كما لا نكاد نجد من الثاني سوى أجزاء متفرقة من الأصل الكبير الذي تجاوز عشرة مجلدات. واستناداً إلى التراجم التي احتوتها الجذوة فإنها تعدُّ معجماً ضخماً حوى أسماء العلماء والرواة والأدباء والفقهاء في (الأندلس)، لا نعرف كتاباً مطبوعاً بلغ هذه المنزلة من كتب الأدب والثقافة الأندلسية حتى عصر الحميدي.

ومن مظاهر النفع الكبير لكتاب الجذوة بالنسبة للأندلس؛ أنه صار أصلاً هاماً وقاعدة ركيزة لعديد من المؤلفات الأدبية والتاريخية التي ألفت بعده مثل كتاب الذخيرة لابن بسام الشنتريني، الذي نجد فيه إحالات عديدة إلى كتاب الحميدي وخاصة في المواطن التي يتعرض فيها لذكر الأخبار الأدبية المختلفة.

وكتابا الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ومطمح الأنفس إلى جانب الكتب الأخرى التي جاءت بعد الذخيرة وكتب الفتح؛ مثل كتاب الصلة لابن بشكوال، غير أن أوسع مدى جرى فيه اعتماد الجذوة في تأليف تالٍ لها، تمثل في كتاب بغية الملتمس للضبي؛ ذلك أن مؤلفه قد أخذ عن الجذوة واعتمد أخبارها وتراجمها بالنص أو بالاقتباس أو أخذ أصول الأخبار والمعاني حتى كاد كتابه يكون نسخة مختصرة من الجذوة، وليس أدلّ على هذا من قول مؤلفه نفسه حين عرّف بالحميدي وترجم له اذْ قال:

(... ومنها كتاب جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس، وعليه اعتمدت ومنه نقلتُ..)[٧٠].

ويكفي المتأمل في أوجه الشبه بين الكتابين سواء من حيث المادة والمعلومات التي احتواها كل منهما أو من حيث منهجاهما أن يلاحظ أثر هذا الأعتماد ونتائج النقل حتى في العنوان الذي حاول الضبي فيه أن يجعله جزءاً أو صورة من عنوان كتاب الحميدي فسمّاهُ (بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس) ليقابل به عنوان جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس).

وهكذا يمكن الوقوف على آثار كتاب الجذوة في عديد من المؤلفات الأندلسية المتأخرة التي يصعب تتبع أوجه الأعتماد فيها على الجذوة مثل كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد وآخرين، ونجده ينقل عن الحميدي في جذوته أخباراً وآثاراً كثيرة في مواطن عديدة من الجزأين الأول والثاني.

وكتاب الحلة السيراء لابن الأبار القضاعي، الذي ينقل هو الآخر نصوصاً عن الجذوة في مواطن عديدة لا تكاد تحصى.

ومثل هذا يمكن أن يقال عن كتاب الأحاطة في أخبار غرناطة لمؤرخ الأندلس وأديبها في القرن الثامن للهجرة. وكتاب نفح الطيب للمقري وغيرها.

أما آثار الكتاب على الصعيد المشرقي فإننا نرى أن كتاب الجذوة قد اطلع المشارقة على مكانة الأندلسيين وجهودهم في ميادين العلم والثقافة بعد أن كانوا ينتقصونهم ويقللون من أهمية جهودهم ومآثرهم ولا يرونهم إلا تبعاً لهم وعالة عليهم في مواهبهم وآثارهم العلمية والأدبية والثقافية بصورة عامة وليس ببعيد عنا موقف الصاحب بن عباد من كتاب العقد الفريد حين اطلع وأطلق قولته المشهورة (هذه أيضاً بضاعتنا ردت ألينا)[٧١].

من هنا فقد كانت الجذوة من الأسس التي أسهمت في اثراء

معلومات المشارقة عن الأندلسيين أخذوا عنها واعتمدوا عليها ورجعوا إلى محتوياتها في عديد من مؤلفاتهم وتراجمهم حين كانوا يؤلفون عن الأندلس أو يترجمون لأعلامه وأمرائه وأدبائه ومثقفيه. ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طعن في مكانتها أو حاول التقليل من أهمية هذه المكانة وآثارها في الدراسات الأدبية والتاريخية.

وإذا مضينا مع المؤلفات في العلوم والثقافة والأدب وبحوث الدارسين المحدثين فإننا نجد الصورة نفسها أو ما يقرب منها بشأن أهمية الجذوة ومكانتها في مصادر الأدب وتراجم الأدباء والدراسات الأدبية والتاريخية ونصوص الشعر وكان من ذلك الملاحظات التي أبداها بعض الباحثين حول الجذوة والترجمة لمؤلفها مع الاشادة بمكانته وثقافته وآثاره.

ومن هؤلاء بالنثيا في كتابه المعروف في الدراسات الأندلسية الحديثة:

((تاريخ الفكر الأندلسي)).

واحسان عباس في تاريخ الأدب العربي عصر سيادة قرطبة..

وعمر الدقاق في كتابه مصادر التراث العربي.

هذا فضلاً عن اعتماده في إحالات عديدة في مؤلفاتهم وغيرها من كتب الدراسات الأندلسية الأدبية والتاريخية.

حظ الأدب في جذوة المقتبس

واذا أردنا إعادة النظر في قيمة الكتاب من الوجهة العلميةوالأدبية سواء من حيث ماضمه بين دفتيه من المعلومات والمادة الأدبية المتمثلة في النصوص الكثيرة أو من حيث الأسلوب الذي كتبت به التراجم... نجد أن هذا الكتاب النفيس ذو آثار هامة ونتائج بارزة في ميدان العلم والثقافة والأدب.

فبالأضافة إلى الايجاز الذي حرص عليه الحميدي في تقديمه لأحوال البلاد الأندلسية في العهود المختلفة في ظل الولاة والأمراء واحوالهم السياسية والأجتماعية والثقافية؛ فإنه مع ذلك كله قد عرض لترجمة مايقرب من ألف علم من أعلام الأندلس في ميادين ثقافية وعلمية شتى كالفقه والتفسير والحديث والتاريخ والأدب بفنونه وبخاصة الشعر، وجلّ هؤلاء الذين ترجم لهم الحميدي لم تحتفظ بهم المصادر المعاصرة على نحو ما احتفظ به هو من أحوالهم وأخبارهم وآثارهم.

فكانت الجذوة وعاءً أميناً حفظ لنا سير أولئك مع نبذ عن حياة كل منهم وذلك على الرغم من الاختلاف الواضح بين علومهم ومعارفهم وتكاد تراجم الفقهاء والقضاة والمحدثين تستغرق ثلثي الجزء الذي ضمنه التراجم، ومابقي منها كان لأدباء أورد الحميدي لأكثرهم نصوصاً: شعرية في أغراض شتى.

وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الحميدي وأورد أمثلة من نظمهم مائتين وسبعة وثمانين شاعراً (٢٨٧) وأديباً كان مجموع الأبيات التي ذكرها في جذوته ألفاً وخمسمائة بيت موزعة على الأغراض المعروفة في الشعر العربي وفق الجدول

ومن النظر في هذا الجدول يبدو أن موضوع الوصف قد نال

المدون وبالترتيب التنازلي:

الغرض		العدد رقماً	العدد كتابة
الوصف		٣١٤	ثلاثمائة وأربعة عشر بيتا
الغزل		٣٠٠	ثلاثمائةبيت
المديح		٢١٢	مائتان واثنا عسر بيتاً
الشكوى		١٢٤	مائة واربعة وعسرون بيتاً
المراجعات		٧٣	ثلاثة وسبعون بيتاً
الفخر	=	٦٩	تسعة وستون بيتاً
الهجاء	=	٦٢	اثنان وستون بيتاً
الخمر والمجون	=	٥٤	أربعة وخمسون بيتاً
الشوق والحنين	=	٤٧	سبعة وأربعون بيتاً
الزهد		٢٢	اثنان وعشرون بيتاً
النسيب		٢٢	اثنان وعشرون بيتاً
العتاب		١١	احد عشر بيتا
الرثاء		٥	خمسة أبيات فقط

عناية كبيرة ثم يليه في ذلك الغزل والمديح والشكوى. وهذا أمرٌ متوقع لما هو معروف عن أهمية شعر الوصف بالنسبة للأندلسيين وعنايتهم به انطلاقاً من صلتهم بالبيئة الأندلسية وتأثرهم بها وكذلك يأتي غرض المديح ليؤكد اهتمام الأندلسيين لهذا الغرض اسوة بأخوتهم المشارقة الذين عنوا بالمديح الى حد طغيانه على كثير من دواوينهم الشعرية. ومثل هذا يمكن أن يقال عن اهتمام الحميدي بشعر الغزل تبعاً لاهتمام الشعراء به.

ولكن الذي يلفت النظر في دلالات الأرقام الباقية أن الرثاء يأتي في آخر القائمة مع انه غرض رئيس في الأندلس وخاصة رثاء الممالك والمدن الذي توسع وتطور عما كان عليه ولم يعد قاصراً على رثاء الأفراد وذلك بسبب الكوارث التي حلّت بالأندلس واذا كان من سبب لذلك بالنسبة للحميدي فليس الا بعده عن وطنه مما حال بينه وبين مشاهدة الصراع الذي أدى الى نشوء دول الطوائف وما ترتب على ذلك من المآسي والمحن.

سمات فنية وادبية في اسلوب الجذوة

ولعلّ مما يساعد على اكمال الصورة الأدبية والفنية لكتاب الجذوة أن ننظر في أهم السمات الأسلوبية التي امتازت بها في ملاحظات موجزة سريعة تسهم في أبراز أهمية هذا السفر الثمين ومكانته في مؤلفات الأدب العربي بعامة والأدب الأندلسي بخاصة.

وأول ما نقدمه بين يدي هذه السمات أن تراجم الحميدي تفاوتت بين الايجاز الشديد أو التفصيل الوافي الذي لا يصل حدّ الأطناب والاسترسال. فإذا رأينا الحميدي يوجز ذلك الايجاز الشديد فإنه يعطي من خلاله صورة عن المترجم له من حيث تخصصه أن كان عالماً أو أديباً أو شاعراً أو كاتباً أو محدثاً ثم يختم ترجمته المختصرة بذكر من أخذ عنه أو روى أخباره أو ذكره بالاسم فقط مع الاشارة إلى سنة وفاته إن وجدت أما اذا رأيناه يطيل بعض الشيء في ترجمته لبضع صفحات فإنه يبعد بذلك عن أن يكون كلامه أطناباً قائماً على الحشو والتكرار، وإنما هو عرض واف لأحوال المترجم له من الناحية الثقافية والعلمية والأدبية مع ذكر صور من نتاجه وآثاره.

ثم نأتي بعد هذا إلى السمة التي تطالع المتأمل في أسلوبه

وتعابيره في تلك التراجم وهي سمة الوضوح والسهولة والبعد عن الصنعة البلاغية والتكلف اللفظي التي يفترض أن يكون قد تأثر بها في عصره وخاصة في المشرق حيث المدارس والاتجاهات الأدبية في فن الكتابة أو يسمى بالنثر المرسل الذي عُرف له في المشرق شيوخ متخصصون رسموا لمن بعدهم الخطوط العريضة للنثر الفني القائم على الصنعة والتكلف.

وهكذا يلاحظ المتأمل في أسلوب الحميدي في جذوته: (إختفاء ظاهرة الغلو التي نلمسها في الغالب لدى مؤلفي كتب التراجم من إشادة بالغة ببعض الشيوخ ونسبة الفضل الفائق اليهم، ولعلَّ كونه محدثاً جعله أقرب إلى الواقع والموضوعية...)[٧٢].

والملاحظة الأخيرة التي علل بها الباحث بعد الحميدي عن الصنعة والغلو لها مكانتها من الصحة والصواب، ذلك أنه مما لاشك فيه أن الحميدي كان محدثاً حافظاً راوية للحديث معنياً بعلومه وفنونه مطلعاً على الأمور الهامة المتعلقة به، ولهذا وجدنا باحثين آخرين يؤكدون هذه السمة ويربطونها بثقافة الحميدي واتجاهه نحو الحديث الشريف وعلومه من ذلك قول باحث آخر أن للحميدي (قدرة فائقة في التجريح والتعديل ومعرفة الأنساب وكل ذلك يدلُّ على ذاكرة عجيبة وحيوية عقلية فذة)[٧٣].

ومما يدعم هذا ويؤكده أن المؤلفات التي جاءت بعد الحميدي وجذوته كالذخيرة والمطمح والقلائد؛ لم يستطع مؤلفوها التخلص من ظاهر الغلو في تعابيرهم حتى جاءت تراجمهم منطوية على قدر لا ينكر من المبالغة والاطراء أطلاق النعوت والصفات والألقاب الطنانة على المترجم له دون تحرّج حتى كان من نتائج ذلك تكرار العديد من الألفاظ والمعاني والتعابير في تراجمهم.

ويبدو هذا واضحاً لكل من يتأمل كتاب الذخيرة أو يقرأ ترجمة من ترجماتها أو سطوراً قليلة منها وكذلك مؤلفات الفتح بن خاقان ــ على الرغم من قلة صفحاتها ــ فكتاب المطمح: كتيب صغير أوسع منه قليلاً كتاب قلائد العقيان في حين اننا وجدنا كتاب الذخيرة موسوعة ضخمة في الأدب والتاريخ الأندلسيين فكان باستطاعة الباحث المتأمل التماس العذر لابن بسام والتوقف والحذر عند الفتح في عبارات الغلو والافراط في الوصف والتعريف.

على أن سمة الايجاز والبعد عن الغلو في كتاب الجذوة لا تعني خلوّ أسلوبها من سمة البيان العربي، فإن الناظر في أساليب الترجمات يبدو له بوضوح إعتماد أسلوب الكاتب على صور البيان والبديع التي تسير مع الطبع وتلائم الذوق ولا تصل إلى أن تكون صنعة أو تكلفاً وبهذا يمكن القول بأن ماذهب إليه بعض الباحثين ضمن تقويمه لكتاب الجذوة واصداره حكماً سريعاً متعجلاً على قيمتها وأهميتها إذْ قال:

(فجاء مجموعا قليل القيمة من تراجم الرجال يشوبه غلط كثير في تحديد التواريخ...) نقول إن ماذهب اليه الباحث لا يخلو من التجني والبعد عن النظرة العميقة الشاملة المستقصية لقسيمة الكتاب واذا صح وجود أغلاط في تحديد عدد من التواريخ فإن هذا له مايبرره من حال الحميدي الذي سبقت الاشارة إليه ويلخص في بعده عن المصادر الأصلية في تاريخ بلده وآداب أهله فكان يملي من حفظة معتمداً به ذاكرته من المعلومات فكان من المتوقع أن يقع في وهم أو خطأ في تحديد السنين واعتماد الأحداث والدقة في ذكرها.

وفضلاً عن ذلك فإن هذه الظاهرة لا تنفرد بها الجذوة أو مؤلفها وانما نجد مؤلفات عديدة في المشرق والأندلس تتسم

بهذه الظروف وعوامل لا تخفى على الباحثين وهي مما عرف تلك العصور ضمن الأمكانات والقدرات التي كانت متوفرة لدى الباحثين القدامى. واذا ما قارنا هذه الظاهرة في الجذوة بنظائرها في مؤلفات مماثلة فإننا سنقف على حقيقة ضعف الظاهرة وضمورها وقلة تأثيرها بالقياس إلى أبعاد وآثار نظائرها في كتب أخرى، وتكون الجذوة بهذا أقل المصادر غلطاً أو وهماً في التواريخ وذكر السنين.

وفضلاً عن ذلك كله فإن هذه الظاهرة ـ بحجمها المحدود ـ لا تكاد تؤثر تأثيراً يذكر على قيمة المعلومات التي عرضها الحميدي في جذوته وتبقى تلك المعلومات ذات قيمة علمية وأدبية وتاريخية لا يستغني عنها الباحثون مهما اختلفت موضوعاتهم الأندلسية أو تباينت مناهج بحوثهم ودراساتهم الثقافية والعلمية والأدبية.

كما تبقى تلك المعلومات دلالة واضحة على ما وصل إليه القوم من تفرغ للعلم وانصراف إلى خدمته وصيانته وحفظه بكل ما كانوا يملكونه من موهبة ومقدرة ومال ووقت وجهد مع التجرد والأخلاص الصدق والحماس والصبر والمصابرة إلى جانب ما أمتاز به اكثرهم ـ ومنهم الحميدي ـ من قوة الحافظة وحضور الذهن وشدة الذكاء والفطنة حتى استطاعوا بمعونة الله والتوكل عليه وابتغاء مرضاته أن يتركوا للأنسانية تراثاً عظيماً يشهد بالتفوق والجد والتجرد والتضحية.

خاتمة

وبعد فهذه صفحات قليلة أوجزت القول من خلالها في أهم خصائص وسمات علم من أعلام الثقافة الأسلامية في القرن الخامس في الأندلس وقد أكد البحث فيها أهمية الحميدي عالماً وأديباً ومثقفاً ومؤلفاً ومحدثاً وراوية للحديث جمع بين الأختصار والأيجاز ووفرة المعلومات والأخبار والآثار والنصوص اللازمة لكل ترجمة من التراجم التي قاربت ألف ترجمة كلها لأعلام أندلسيين عبر قرون طويلة منذ الفتح الأسلامي لشبه الجزيرة الأندلسية وحتى أواخر القرن الخامس للهجرة.

وقد كشف البحث كذلك عن قيمة الجذوة على الصعيدين الأندلسي والمشرقي بما حوته من النصوص الأدبية والتاريخية والعلمية العامة عن الأندلس فكانت قاعدة عامة من قواعد التاريخ والحديث والأدب مكنت عديدين من مؤلفي المشارقة والأندلسيين من الافادة منها في تآليفهم اللاحقة ومما تمخض عنه البحث تلك الصلة القوية التي كشف عنها بين الأندلس والمشرق ومتانة العلاقات العلمية والثقافية بينهما في صور من الرحلات العلمية وتبادل المعلومات والآثار في نطاق واسع وآماد رحبة تجاوزت الحدود وتغلبت على بعد المسافات ومشقات الأسفار في تلك العصور مع ما تستغرقه من الفترات الزمنية الطويلة. وأخيراً فلعل هذا البحث المتواضع قد أسهم بشكل واضح في اثبات جدارة سلفنا الصالح من العلماء والأدباء والمؤرخين والمؤلفين والأشواط التي قطعوها في ميادين العلم والمعرفة وما وصلوا إليه وحققوه من معالم الحضارة الأيجابية المتوازنة الحقة؛ في عصور كان العالم خلالها حول الجزيرة الأندلسية ـ يغط في نوم عميق وجهالة جهلاء وضلالة عمياء في ظل سيادة الاقطاع والرق وسيادة الأمية وتحكم الأباطرة والقياصرة.

فلله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش

(١) ــ علمت مؤخراً أن أحد الطلبة المغاربة قد سجل هذا الكتاب موضوعاً لرسالة ماجستير في جامعة القاهرة دراسة وتحقيقا.

وعلمت أيضاً أن الباحث الكبير المعروف الأستاذ فؤاد سزكين قد طبع نص كتاب التسهيل هذا بالتصوير عن الأصل المخطوط ولكني لم استطع الحصول عليه.

(٢) الحموي ــ ياقوت / معجم الأدباء جـ٧ ص٥٨

(٣، ٤) ابن خلكان / وفيات الأعيان جـ٤ ص٢٨٢

(٥) الحموي/ ياقوت: معجم الأدباء جـ٧ ص٥٨

(٦) الحنبلي: ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي/ شذرات الذهب جـ٣ ص٣٩٢

(٧) ينظر عنان ــ دول الطوائف حتى الفتح المرابطي

الحجي: عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي ٢٧٦ ــ ٤٠٦

(٨)أحمد أمين، ضحى الأسلام جـ٣ص٢٧٩

(٩)ينظر نفح الطيب جـ ١ــ٢ فقد عقد المقري فصولاً استغرقت مجلداً وبعض مجلد من كتابه للحديث عن الراحلين إلى المشرق الأندلسيين ومثل هذا القدر من الكتاب خصصه للوافدين على الأندلس من المشرق.

وينظر كذلك مجلة الجامعة ــ تصدرها جامعة الموصل ــ في عدديها المتضمنين مقالين في الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق. والرحلات العلمية من المشرق إلى الأندلس. / العددان الأول والثاني السنة العاشرة ١٩٧٩ على التوالي.

(١٠) الحموي ــ ياقوت ــ معجم الأدباء جـ٧ص٥٨

(١١) الضبي ــ أحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة ــ بغية الملتمس ص١١٣

(١٢) ــ ينظر عدد من صفحات الجذوة منها مثلاً: ت٤٣ ص٥٣. ت٣١٧ ص١٩٢

وكثير غيرها من التراجم التي أشار الحميدي ضمنها إلى شيوخه المعروفين.

(١٣) الحموي/ ياقوت بن عبد الله: معجم الأدباء جـ٧ ص٥٨

(١٤) الأفغاني: سعيد: ابن حزم ورسالة في المفاضلة بين الصحابة ص٣١٦

(١٥) أحمد أمين / ضحى الاسلام جـ٣ ص٢٧٩

(١٦) الحميدي/ جذوة المقتبس ص٣٠٩ ت٧٠٨

(١٧) نفسه ص٣٩٧ ت٣٩٧

(١٨) عنان / محمد عبد الله ــ دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ص٤٣٩

(١٩) الضبي / أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ــ بغية الملتمس ص١١٣

(٢٠) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان جـ٤ ص٢٨٢

(٢١) الحموي ــ ياقوت بن عبد الله ــ معجم الأدباء جـ٧ ص٥٩

(٢٢) الذهبي : الامام أبو عبد الله شمس الدين / تذكرة الحفاظ جـ٣ ص١٢٢٠

(٢٣) المقري/ احمد بن محمد المقري التلمساني ــ نفح الطيب جـ١ ص٣١٤

(٢٤) الحموي: ياقوت بن عبد الله / معجم الادباء جـ٧ ص٥٩ وتنظر مقدمة الطبعة الأولى من الجذوة، للاستاذ محمد بن تاويت، ص٢

(٢٥) الصفدي ــ صلاح الدين خليل بن ايبك ــ الوافي بالوفيات جـ٤ ص٣١٧ /١٨

(٢٦) مقدمة الناشر لكتاب الجذوة ص ح طبعة الدار المصرية للتاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٦

(٢٧) ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك / الصلة ص٨٢ ت ١٢٣٠ القسم الثاني ص٥٦١

(٢٨) الحموي/ ياقوت ــ معجم الأدباء جـ٧ ص٦٠

(٢٩) الضبي/ احمد بن يحيى بن عميرة ــ بغية الملتمس ص١١٣

(٣٠) المراكشي / عبد الواحد ــ المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب ص٧٣

(٣١) الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد ــ شذرات الذهب في اخبار من ذهب جـ٣ ص٣٩٢

(٣٢) الأتابكي ــ ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف.. النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة جـ٥ ص ١٥٦

(٣٣) أشرت في مقدمة البحث ألى قيام أحد الطلبة المغاربة بدراسة الكتاب وتحقيقه في رسالة ماجستير في جامعة القاهرة.

(٣٤) الحميدي / جذوة المقتبس ص١٠١ ترجمة ١٧٢.

(٣٥) المصدر نفسه مقدمة المؤلف ص٢

(٣٦) ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالله/ الصلة جـ٢ ص٥٦١

(٣٧) الصفدي: صلاح الدين خليل بن الايبك/ الوافي بالوفيات جـ٤ ص٣١٨.

(٣٨) الحموي / ياقوت ــ معجم الأدباء جـ١ ص٦٠

(٣٩) ابن هشام: أبو محمد عبد الله بن هشام بن أيوب/ تهذيب سيرة ابن هشام جـ٢ص٥١٠ ت عبد السلام هارون ط دار سعد بمصر ١٣٧٤، ١٩٥٥

(٤٠) الصفدي/ الوافي بالوفيات جـ٤ ص٣١٨

(٤١) الذهبي / أبو عبد الله شمس الدين: تذكرة الحفاظ جـ٣ ص١٢١٨

(٤٢) الحموي/ ياقوت، معجم الأدباء جـ٧ ص٦٠

(٤٣) ينظر العددان: الأول والثاني من مجلة الجامعة السنة العاشرة ١٩٧٩ حول الرحلات العلمية من الأندلس الى المشرق ومن المشرق الى الأندلس.

(٤٤) ــ الحميدي / جذوة المقتبس / مقدمة المؤلف ص١

(٤٥) الحميدي / جذوة المقتبس / مقدمة طبعة الدار المصرية ص١

(٤٦) المصدر نفسه ص٢.

(٤٧) الحميدي / جذوة المقتبس ــ مقدمة المؤلف ص٢

(٤٨) محمد بن تاويت / مقدمة كتاب الجذوة الطبعة الأولى بتحقيقه.

(٤٩) حاجي خليفة، كشف الظنون جـ١ ص٥٨١

(٥٠) أحمد أمين، ضحى الأسلام جـ٣ ص٢٧٩

(٥١) بالنثيا: آنخل جنالث، تاريخ الفكر الأندلسي ص٢١٠

(٥٢) احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ــ عصر سيادة قرطبة. ص٣١٥

(٥٣) الدقاق / عمر مصادر التراث العربي في المعاجم والأدب والتراجم. ص٢٨٧

(٥٤) الحميدي / جذوة المقتبس ص٦

(٥٦) المصدر نفسه ص٣٦

(٥٧) المصدر نفسه ص٣٦

(٥٨) المصدر نفسه ص٣٨

(٥٩) المصدر نفسه ص١٠٠

(٦٠) المصدر نفسه ص١٤٩

(٦١) المصدر نفسه ترجمة رقم ٢٥٨، ٤٢٣

(٦٢) نفسه ص٤١٢ ــ ٤١٣

(٦٣) نفسه ص٤١٣ ــ ٤١٤

(٦٤) المصدر نفسه ص٣ مقدمة المؤلف

(٦٥) بروكلمن / كارل. تاريخ الأدب العربي جـ٦ ص١٠٤

(٦٦) الدقاق: عمر. مصادر التراث العربي ص٢٨٨

(٦٧) الخطيب البغدادي / أبو بكر أحمد بن علي..

تاريخ بغداد جـ٣ ــ ٥ وجـ٦

(٦٨) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، المجلد الأول.

(٦٩) الجذوة/ مقدمة الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي للطبعة الأولى ص٧.

(٧٠) الضبي/ بغية الملتمس المقدمة ص٥

(٧١) ــ ينظر / ياقوت ــ معجم الأدباء جـ٢ ص٦٧

وينظر كذلك بحث / العقد الفريد بين المشرق والأندلس.

مجلة آداب الرافدين العدد السابع شوال ١٣٩٦ في ص٣٢٩ ــ ٣٦٤.

(٧٢) الدقاق / عمر مصادر التراث العربي ص٢٨٨

(٧٣) أحسان عباس / تاريخ الأدب الأندلسي ــ عصر سيادة قرطبة ص٣١٥

المصادر والمراجع

١ــ احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ــ عصر سيادة قرطبة الطبعة الثانية ــ دار الثقافة ــ بيروت.

٢ــ أحمد أمين: ظهر الاسلام جـ٣ــ الطبعة الخامسة.

دار الكتاب العربي/بيروت ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٩م.

٣ــ الأفغاني: سعيد. ابن حزم الأندلسي ورسالة في فضائل الصحابة، الطبعة الثانية / دار الفكر ١٩٦٩.

٤ــ ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك. كتاب الصلة.

٥ــ ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

٦ــ ابن خلكان: وفيات الأعيان.

٧ــ بالنثيا: آنخل جنثالث. تاريخ الفكر الأندلسي. الطبعة الأولى / مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥.

٨ــ حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة.

منشورات مكتبة المثنى ــ طبعة مصورة بالأوفست.

٩ــ الحموي. ياقوت: معجم الأدباء/ اعتنى بنسخه وتصحيحه مرجليوش.

مطبعة هندية بالموسكي ــ مصر: القاهرة/ ١٩٢٥.

١٠ــ الحميدي: أبو عبد الله؛ محمد بن فتوح بن عبد الله بن حُميد بن يصل الأزدي الحميدي.

جذوة المقتبس في ذكر أسماء رواة الحديث وأهل الفقه وذوي النباهة.

قام بتصحيحه محمد بن تاويت الطنجي/ مكتبة نشر الثقافة الأسلامية الطبعة الأولى/ توزيع مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخانجي بمصر.

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس

طبعة دار المصرية للتأليف والترجمة والنشر.

١١ــ الحنبلي: المؤرخ الأديب الفقيه أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

طبعة المكتب التجاري بيروت.

١٢ــ الخطيب: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي.

تاريخ بغداد أو مدينة السلام.

١٣ــ الذهبي: الامام ابو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ ــ ١٣٤٨م. تذكرة الحفاظ ــ الطبعة الرابعة، دار احياء التراث العربي بيروت.

١٤ــ الصفدي: صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي. الوافي بالوفيات / الطبعة الثانية، باعتناء هلموت ريتر ١٣٨١هـ ــ ١٩٦١م

١٥ــ الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة.

بغية الملتمس. طبع في مدينة مجريط بمطبعة روض سنة ١٨٨٢ المسيحية.

١٦ــ عمر الدقاق: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم. الطبعة الثالثة ــ مكتبة دار الشرق بيروت ١٩٧٥

١٧ــ عنان: محمد عبد الله / دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. الطبعة الثانية / القاهرة ١٣٨٩ / ١٩٦٩.

١٨ــ كارل بروكلمن، تاريخ الأدب العربي جـ٦ تحقيق: رمضان عبد التواب والسيد يعقوب بكر. طبعة دار المعارف ١٩٧٧.

١٩ــ المراكشي: عبد الواحد المعجب في تلخيص أخبار المغرب. طبعة لجنة احياء التراث ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

٢٠ــ المقرّي: أحمد بن محمد المقرّي التلمساني.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب... تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. الطبعة الأولى ١٣٦٧ / ١٩٤٩. مطبعة السعادة.